مذكرات فتاة في الغربة

ريم جهاد

مذكرات فتاة في الغربة / مذكرات

ريم جهاد

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨



دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تدقيق لغوي :

أحمد منتصر

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٦٥٠٢

I.S.B.N: 978-977-6297-03-17

مذكرات فتاة في الغربة

ريم جهاد

الطبعة الأولى

٢٠٠٨



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أبي الغالي الذي عاش معي بروحه و عقله كل حرف من حروف هذا الكتاب و الذي تناثر عبير أحاديثه بين الكلمات و سكنت همسات تشجيعه بين السطور..

و إلى أمي الرائعة، نبع الدفء و المثابرة الدائمين، و الجندي المجهول، مصدر الإلهام و سبب النجاح في كل معارك حياتي الصغيرة..

و إلى أختي الصغرى.. الحبيبة المشجعة في صمت بليغ جميل..

و إلى جدتي الحنون، معلمتي و ملاذي.. جدتي التي رعت قلمي ووجهته في حكمة و تفهم و حب فياض لا نهاية له..

و إلى أستاذتي العزيزة ماجدة خضر.. شمس أملي وإرادتي وبسمة حياتي التي لا تنطفئ أبدًا والتي تمدني بالحيوية والعزيمة دائمًا..

و إلى صديقة عمري، وأحلام طفولتي، وحياة أيامي، إيمان قيصر.. كبرنا سويًا تحت سماء أيرلندا وتبادلنا الحكايات والخبرات..تعجبنا سويًا و خفنا سويًا.. وتعايشنا و فهمنا و ثبتنا أرجلنا سويًا.. أهديكِ الكتاب يا إيمان مع كل حبي و كل اعتزازي بوجودكِ في حياتي.. ومع كل تقديري لكل كلمة كتبتها لأنها في نهاية الأمر ليست شيئا خالصاً من عندي بل هي عبير أزهار شجرة كبرت بك ومعك وحول روحكِ المضيئة حبًا و حنانا.. و مرحًا و ألوانا..

دمتِ لي بخير دائمًا..



(١)

الجمعة ٢١ سبتمبر ٢٠٠٧

لازلت أذكر اليوم الذي أتممت فيه عامي الخامس عشر.. هذا العام له سحر خاص في حياتي.. كل ما فيّ غنى وأزهر.. بي شوق عارم لأعانق الدنيا بأسرها.. في داخلي بركان مشاعر وأحاسيس تفيض من حولي فتغرقني وتغرق عالمي الصغير.. ما عاد هذا العام يتسع لكنوزي المتوثبة، إنما تقفز كالأرانب الصغيرة في حديقة أفكاري أخاف أن تفلت مني فلا أقدر على الإمساك بها.. لذا فإني أرى أن عليّ القيام بشيء ما.. نعم، عليّ أن أفتح أبواب حديقتي كي أجعل عبير أزهاري يغرق كل من حولي، ما عدت قادرة على حبس أفكاري أكثر من ذلك.. هناك إحساس عميق يجتاحني، يصرخ بي: بإمكانك أن تخلقي صديقاتك إن لم يُخلقوا لكِ.. أقدم صداقة في تاريخ البشر.. الصداقة مع الورق والقلم.. وها أنا أقرر أن أفتح أبواب الكنوز المغلقة واتركها تتدفق على أوراقي.. أخاطبها وتخاطبني.. وأشكو لها فتواسيني..أحبك يا أوراقي وأحب ما قد تتيحيه لي من انطلاق وحرية وها هي كلماتي.. احضنيها برفق فهي كلمات صغيرة تخرج من قلب صغير.. إليكِ خواطري أو مذكراتي.. (أسْمِها ما

شئتِ أيتها الأوراق!!) تكتب إليك فتاة مصرية تعيش في جمهورية أيرلندا الجنوبية (جزيرة صغيرة على شكل دب أو "تيدي" بجانب المملكة المتحدة، يفصلهما البحر الأيرلندي وهو بحر صغير هادئ).. يدعونني حنان أو "هنان" كما يناديني الأيرلنديون، يمدون الألف و يضخمونها.قليلا بطابع لهجتهم الإنجليزية الموروثة عن لغتهم الأيرلندية القديمة. أبلغ من العمر حتى الآن ١٥ عامًا (و هو سن مثالي!) وهذا كل شيء، لا أحب أن أعطي محاضرات مطولة عن حياتي فستعرفين كل شيء في وقته.. إني مصرية.. أيرلندية؟ نعم، أنا مصرية أيرلندية.وإن كنت أعيش في أيرلندا منذ خمسة أعوام فقط، لكني أعشق هذا البلد الأخضر بعمق.. فهو مهما ذهبت أو أتيت جزء من حياتي. جزء مني. حنان؟ حنان مزيج فريد بسيط صامت حيوي.. تشبعت بحب الطبيعة الأيرلندية الخلابة وموسيقاها الراقصة وشمسها النادرة الهادئة وزهورها الصفراء والبيضاء الصغيرة وليلها الساكن ووجوهها الباسمة.. أذوب في هوى مصر والنيل والشمس الساطعة طوال العام التي لوّنت جلدي فغدوت قمحية نيلية.. والأهل، والدفء، وكوني غالية محفوظة.. وبيتي، مدرستي، شارعنا.. العم سيد الطيب عاشق الكرة و مدمن فريق الأهلي، صاحب بقالة السلام الصغيرة.. جدتي.. كم أعشق أيام الخميس عندما نجتمع في بيت جدتي وأرى أولاد

خالي وخالاتي، و أيام الجمعة عندما نتناول الغداء في بيت عمتي الكبيرة مع بقية أعمامي و عماتي و أولادهم..أحيانا أجلس أمام المرآة أنظر لنفسي و أقول "حنان، هؤلاء أهلك، أنتِ تنتمين إلى هؤلاء الأشخاص، هم منك و أنتِ منهم، لقد ولـــدت علـــى أيديهم، لقد شاهدوك تكبرين.. أنتِ من هـــؤلاء النـــاس يـــا حنان". و ما أروعهم يا إلهي! و ما أروع بيتي..وإن ســـألتموني أيهمـــا بـــيتي، مـــصر أم أيرلنـــدا؟ لجـــاوبتكم وقلـــت مصر..وأيرلندا!..فعندما أكون في مصر أشعر بسعادة غـــامرة، سعادة من نوع خاص..سعادة تؤكد لي أني فعلا أنتمي لمكـــان وعائلة..وفي أيرلندا أشعر أن المعيشة وضع طبيعي..كأنها بـــيتي؟ بيتي الثاني ربما..أيكفيكِ هذا الجواب الدبلوماسي؟ (إن سمحتِ لي بأن ألقب إجابتي بهذا اللقب) ولكني سأكتب وإليكِ أيتـــها الأوراق كي تحكمي، بحكم حياتي التي سأرويها لكِ، إن كـــان يسمح لي بأن أتخذ مصر بيتا..وأن أصمم على أن أكون كسائر بنات بلدي..وربما عندما أكتب، وأفرغ لك كل شيء.. أغيّـــر رأيي، أو أبني رأيًا جديدًا، قد لا يعرف الناس قوة حبر قلم على الورق..فإنك شخص مثير أيتـــها الأوراق!! اتفقنـــا؟إذن هيـــا بنا..ماذا تريدين أن أقول لكِ؟ سأكون هادئة في أول كتابة لكِ (أحذركِ، فإني حادة جدًا في أحيان كثيرة).. سأحكي لكِ عن الأيرلنديات..لا بل سأحكي لكِ عنا مع الأيرلنديات..من نحن؟

مني ومريم وناتاليا ودانة وجابريل..مني ومـــريم الفلـــسطينيات، ودانة العراقية، وجابريل الفلبينية، وناتاليا الروســـية، وحنـــان وأختها رنا.. (مع الأسف لاتتوفر لدينا وجهة نظـــر ذكوريـــة للموقف!). بالتأكيد نحن واحدة من المجموعـــات الأجنبيـــة في المدرسة.. فمن النادر جدًا أن تجدي فتاة أجنبية مع أيرلنـــديات وإن وجد (حالة دانة) فيكون معها فتاة أو اثنتان على الأكثـــر وتكون دانة طبعًا في أيرلندا منذ وقت طويل وغير محجبة.. حتى في الفصل يا وريقاتي فجابريل الفليبينية بجانب ناتاليا الروســـية بجانب حنان المصرية والباقى هم أهل البلد يختلطون مع بعضهم البعض وقد يتغامزون إذا تحدثت إحدانا وأخطأت في نطق هذه الكلمة أو تلك.. فتلزم جابريل السكوت في أغلـــب الأحيـــان (حل سلبي ضعيف).. أما مني و مريم الفلسيطنيات فلا يعـــرفن من اللغة الإنجليزية إلا القليل جدًا وهم في أيرلندا منذ شهرين أو ما يزيد بقليل عن شهرين فقط.. ومنى (الكبيرة) تعاني من الغربة الأولى التي عانيت منها أنا في وقت متأخر (فقد كنت طفلة).. وهناك من الأجنبيات من يتمردن بالطبع.. فبالرغم مـــن أنهـــا وحيدة في المدرسة، إلا أن أوكسانا (تلك الفتاة الجميلة) التي لا أعرف أصلها، عندما نكون واقفات ننتظر على بـــاب المعمـــل لدخول حصة الأحياء (أو أي حصة آخرى) تمشي بجانبنـــا في هيئة كلها ثقة وارتياح و بعض الغرور (الذي أظن أنه مفتعـــل)

وكان هذا الطابور من الأيرلنديات (والقليل من الأجنبيات) لا يعني لها شيئا.. وتقف في أوله ترمي نظرة للفتيات خلفهـــا..ثم تسدل شعرها الأسود على كتفها.. و تعطيهم ظهرهـــا تنتظـــر المعلمة..حتى تأتي..وتقودهن أوكـــسانا وتقودنـــا إلى حـــصة الأحياء..حيث تجلس في أقصى نهاية الصف..

حياتنا ليست سوداء وكلها عنصرية و غربة على أية حال.. لا داعي للقلق و الحسرة !! فنحن نجعـــل حياتنـــا ورديـــة..أو نحاول..فنجلس : منى وأختها مريم وحنان ورنا.. وجابريل مع دايزي وروجالين وآيرا.. باختصار: ذوات اللغة الواحدة يجلسن ســـويًا.. وهنـــاك أفريقيـــات وباكـــستانيات و برازيليـــات وبولونديات..نكون كالسفارات تمامًا.. أنضم أنـــا إلى المـــؤتمر العربي بالطبع والأمر يشبه الإدمان فليس من السهل أن أقـــول "أعتذر يا جماعة لن أجلس معكم بل سأختلط بالمجتمع حـــولي بمنتهى السلاسة و السهولة"، الأمر الذي من المفترض أن يُعـــد طبيعيًا..(مش بعيد يسموني خاينة وعميلة كمان) وأجلس على أية حال..أسكت؟ لا..أشكو؟ لا لا...نجلس نضحك و نقول نكات عربية و نتكلم عن كل شيء عربي في حياتنا..رمـــضان (لا نكترث بالأيرلنديات الآكلات فقد تعودنا علـــى ذلـــك) وبتمنياتنا أن يأتي العيد في نهاية الأسبوع حتى يكـــون والـــدنا في إجازة من العمل ونكون نحن في إجازة من المدرسة وتحلو لنا

"الفسحة" (وكم هو عيد كئيب إن أتى في وسط الأسبوع)..
ونتساءل متى سيأتي شيخ من العاصمة للمسجد الصغير هنا
ليعلمنا القرآن؟.. هذا غير الحديث عن منى زكي وتامر حسني
وشيرين والمسلسلات والأفلام.. والهواية الإجبارية:
الترجمة..نساعد بعضنا البعض في اللغة الإنجليزية فكم هو مشين ،
ألا نكترث بلغة البلد الذي نعيش فيه..وننقل الحكاوي بيننا،
أحاديث الفتيات المعتادة وغير المعتادة.. ذكرياتنا وأحلامنا
وآمالنا.. و تنطلق الضحكات في فرح و إخاء وانتهت الجلسة
في يوم بقول منى "حنان، أنا بِحبك كتير".. و قلت لها "وأنا
بموت فيكي"..وذهبنا إلى حصصنا في حالة من الثقة والسرور..

و كفاني كلام اليوم..لقد أتعبتكِ!!

(٢)

الأحد، ٢٣ سبتمبر

علاقتي مع الأيرلنديات؟ مممـــم، عاديــة في الواقـــع ... أعيش الآن في ليمرك (مدينة بجنوب غرب أيرلندا).. انتقلت هنا هذه السنة فقط..وسأحكي لكِ عن تجربتي مـــع الأيرلنـــديات فيها..إذ إنها أشمل واحدة (فقد تنقلت كـــثيرًا.. لم أســـتمر في مدرسة واحدة أكثر من سنتين مطلقا في حياتي كلها..!).

أول يوم دراسي:

ارتديت رداء المدرسة..قميص أبيض، كنزة صوفية خـــضراء وتنورة خضراء طويلة تصل إلى كاحلي هذه المرة، فلم يعد هناك تلك التي فوق كاحلي ولا تلك التي تحـــت ركـــبتي بـــضعة سنتيمترات (أبإمكان المحجبة تغيير رداء مدرستها؟ كل ما تفعله بالرغم من هذا المنظر الغريب هو أن ترتدي جـــوارب طويلـــة داكنة اللون..) و أتيت بحجابي الأبيض، أضعه حول رأسي بتأن وبشكل تقليدي..وابتسمت لهذا البياض الذي يحتـــضنني..ثم ذهبـــت ببسمة وأمل إلى مدرستي الجديدة، يدق قلبي خوفا عند البوابـــة عندما تتركني سيارة أمي ولكني دخلت في خطى ثابتة متجاهلة

كل التحديق الذي ينبعث من عيون من حولي..وبحثت عن القاعة التي سيكون فيها التقديم للسنة الدراسية الجديدة، فالدوام ساعة فقط اليوم (الأربعاء) ثم أستأنف الدراسة يوم الجمعة .. ذهبت ناحية القاعة، ووجدت فتيات من نفس عمري يجلسن أمامها فسلمت عليهن ثم سألتهن إن كانت هنا مقابلة السنة الخامسة في العاشرة والنصف.. ولكن إذا بضحكات تنطلق بلا توقف من جميع من حولي..نظرت إليهن في حدة و قالت لي إحداهن "نعم، بإمكانك الجلوس ههنا".. وجلست أكاد أتوعد لوجهي بالقتل لما راوده من احمرار و ظللت محرومة من أي إنفعال أو ردة فعل ولو حتى داخلية..ثم إذا بي على غير العادة أتذكر الآيات التي تقول "إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، و إذا مروا بهم يتغامزون.... فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون" (صدق الله العظيم)..أحسست بنفحات غضب تشتعل بداخلي.. أهو شكلي؟ أهو حجابي؟ أهي لهجتي؟ أكان سؤالا ساذجًا؟ لكني كنت أتأكد فقط لا غير..ثم إن هذا أول سؤال خطر ببالي للتعرف عليهن..حزنت وصمتُ، لم أفتح فمي..وأحسست بإحساس فظيع، بل إني صدمت.. كانت هذه هي المرة الأولى لي في مدينة أيرلندية وليست تلك الـ"شبه المدن" التي يسمونها "تاون" و جرت العادة أن أهل المدن أكثر حدة في التعامل مع الأجانب، وكانت تلك هي المرة الأولى التي

أصطدم فيها بمضايقات صريحة ووجهًا لوجه هكذا..
مضت الدقائق حتى لمحت أننا نجلس أمام نوافذ غرفة المدرسين والمدرسات فقررت ألا أدعهم يلاحظون أن البنات قد ضايقنني فإني أكره هذا الإحساس..بدأت أتكلم..أدارت واحدة منهن وجهها وضحكت في.صمت و ردت آخرى ردًا قصيرًا محددًا (يعني من الآخر: كلمة ورد غطاها)..فعدت للصمت مرة أخرى..ثم بعد بضع دقائق أحسستها طويلة أبدية دخلنا تلك القاعة لألفت كالعادة نظر جميع المدرسات.. جلسنا وهدأ ضجيجنا و بدأت إحداهن تتكلم.. ومن ضمن كلامها قالت "من حق كل تلميذة في المدرسة أن تقضي عامها الدراسي في طمأنينة وألا تتعرض إلى أي شيء يضايقها في حياتها و يعطلها عن الدراسة..نريد المدرسة مكانا طيبًا للجميع بدون استثناء.. " ظننت أنها لفتة طيبة منها ولكنها كانت تنظر إليّ وتكلم الفتيات في حزم بالغ لم يطمئني.. عدتُ إلى بيتي في صمت تسألني أمي عن المدرسة و أحاورها بردود قصيرة لا فائدة منها: "كويسة".."عادي".."زيها زي غيرها".."ملحقتش أشوف حاجة".."أيوه نقلت الجدول".. وكان هذا كل شيء، لكني كنت أحس بثقل في قلبي..عندما وصلنا إلي البيت خرجت أمي مجددًا مع أختي لشراء بعض الأغراض ومكثت وحدي أحاول أن أقنع نفسي بأني أنتظرهم لا غير و أنه ليس هناك ما يدعو

لرغبتي بالجلوس وحدي..دخلت غرفتي وأغلقت على نفسي الباب.. أعزل حنان عن كل شيء..عن كل ما في تلك الدنيا..نظرت إلى نفسي في المرآة، ففككت حجابي و نسقت شعري البني الناعم المتموج..أأنا أجمل هكذا؟..ابتسمت بضعف لوجهي الذي انطفئ نوره..لا، أنا لست حنان هكذا..تذكرت التغامز والضحكات..تذكرت كم شعرت بالنقص والوحدة حينها..أن الدنيا كادت أن تسود في وجهي..تذكرت كم كنت معززة مكرمة في مصر..أوجعني قلبي..وأحسست بهزة في نفسي، لم أكن أتخيل أن هناك ما هو أسوأ من التجاهل ورفض الناس لشخصي..انفجرت في البكاء..أستغل فرصة أني وحدي بالبيت..أبكي، أحرق الغليان المكتوم في قلبي.. علام كان كل الأمل؟ والتفاؤل؟ والشجاعة؟ ..على الإهانة؟ على الحزن؟.. أحسست أني ضعيفة..أني هشة..أني أريد شخصًا بجانبي.. شخص يحتضنني ويقول لي إن كل شيء سيكون على ما يرام.. ولكني مسحت دموعي التي غسلت عينيّ المخنوقتين حيرةً و حزنا وامتنعت عن الشكوى..أحافظ على بعض من فتافيت عزة نفسي المتبقية.. مرّ اليوم بشكل طبيعي..أتى المساء وكلنا جلوس في غرفة المعيشة تحكي أختي عن المدرسة ويسألني أبي عن يومي فأرد عليه بوصف سيء جدًا للمدرسة..وكأني أمقتها من يوم ولدت وأكرهها أشد الكره..ثم أحسست بدمعة..وفلتت مني

جميع الدموع مرة أخرى..قال لي والداي إنه لا يجب أن أحكم على المدرسة لمجرد أني قابلت فتاة أو فتاتين و لم أرتح لهما..قالوا أيضًا إنهن ربما كن يضحكن على أي شيء آخر و أني حساسة جدًا..لكني بدأت أصرخ، أيخيل لي؟ إذن أنا أريد أن أفسد حياتي بنفسي؟ و في النهاية أنا أيضًا المخطئة؟ أنا المذنبة في الموقف كله؟ أنا التي عندي تهيؤات وأنا التي تحس بشكل خاطئ؟ لا لم يكنّ يضحكن على أي شيء آخر، أنا لست مجنونة... أنا إنسان أشعر وأحس..لا يجب أن أشعر بكل ما هو جميل فقط.. و لم أعد أفهم أي شيء..على الإطلاق..

اليوم التالي (الخميس):

لا مدرسة اليوم.. أول ما خطر ببالي عندما استيقظت أفتح عيوني وكنت لا أزال مضطجعة على سريري..طمأنتني الفكرة..وقمت أفتح ستائر شبّاكي و تنهدت ناظرة للحقول الخضراء في الأفق.. مارسنا يومنا بشكل طبيعي..ذهبنا إلى المحل الحلال..كما أسميناه، فهو المتجر الذي يبيع اللحوم المذبوحة على الشريعة الإسلامية ويبيع أيضًا منتجات عربية (فيصلنا عصير إنجوي المصري والملوخية المجمدة -التي لا أحبها، إما خضراء و إما لا أريدا- والبامية المجمدة أيضًا وإلى آخره من

البهارات والأكلات العربية) وشعرت بأني في بلدي..بالرغم من أن أصحاب المحل ليسوا بمصريين إلا أني أحسست أنه لايـــزال مكانا أنتمي إليه..مازال هناك خير في هذه الدنيا..وسبحان الله كيف أن الأمل الحقيقي طاقة غريبة..نعم، أحسست أني أولـــد من جديد، أنه فعلاً هناك شيء قوي كالطاقة بداخلي وأنه لـــن يُسمح لي بأن أتخلى عنه..وأحسست أني مثل شجرة تفاح، إن رميتها بحجر ستعطيك تفاحًا، وكأنها تتألم لكنها ترجع تعطـــي وتكبر و تترعرع حتى يعجب بها من حولها ويقطفـــون منـــها التفاح قطفا، ولا يرمونها بالحجارة.. وكنت أبتسم، ســـعيدة في نشاط و قوة.. كدت أنام و أنا على أتم الاستعداد لليوم التـــالي -أول أيام المدرسة-.. و لكن إذ بـــأبي يريـــد أن يحـــادثني.. "حنان..دلوقتي قرار الحجاب ده كان قرارك لوحدك، و طبعًـــا ده شيء كويس وإحنا مبسوطين بيه..بـــس ربنـــا قـــال إنـــه الضرورات تبيح المحظورات..فلو إنتي حاســـة إنـــه الحجـــاب بيسببلك مشاكل في المدرسة وفي الشارع، و المشاكل دي فوق طاقتك..يعني..مخليكي مش بتمارسي حياتك بشكل طبيعـــي، ممكن تقلعيه". قالها أبي، كنت أنتظرها منذ بداية حديثه و نزلت الدمعة المحبوسة (كم كنت كثيرة البكـــاء في هـــذه الفتـــرة).. و أكمل أبي يقول:"يعني الإسلام دين تسامح و منطق و بعدين

ممكن برضه الواحد يبقى لبسه كويس ومحترم ومحتشم..من غير الطرحة..".

آلمني قلبي.. "أنا عارف إنك عاقلة وهتفكري كـــويس في إللي بأقوله.. فلو إنتي حاسة انه الحجاب بيحملك فوق طاقتك، ممكن تقلعيـــه، أنـــا مـــش شـــايف مـــشكلة في كـــده.." حتى أبي الذي كان ضد كل من يقترح عليّ أن أتخلـــى عـــن الحجاب يبيح لي أن أخلعه الآن..

و إليكِ البقية في المرة القادمة..

(٣)

الاثنين، ٢٤ سبتمبر

لم تبقَ غير عمق رجاء.. دوت كلماتها في عقلي.. القــوة والتمسك بالمبادئ.. لقد تحجبت هي أيــضًا في وقــت كــان الحجاب فيه غير مألوف في مصر..وكان قرارهــا وحــدها.. بقيت هي الإنسان الوحيد الذي مثل لي القوة تلــك الليلــة.. مكثت ساهرة في سريري..نعم، أنا فكرت سابقا في أن أخلــع حجابي.. لكني وجدت أن أكثر من أحب وأكثر من أقــدّر لا يشجعني، فماتت الفكرة التي لم أبح بها..أو ربما بقيت خلــف كل شيء، فكرة موجودة، لكن ليس لها حق الحياة..أمــا الآن فجميع الطرق و الأبواب مفتوحة أمامي لآتي بهذه الفكــرة إلى الدنيا.. وتوالت ساعات الليل.. وأنا لا أنام.. "حنان،إن خلعتِ الحجاب فسيكلمك الفتيات..سترجعين بعــد أول يــوم مــن المدرسة تحكين لأمك عن هذه الفتاة وتلك وهذه الأخرى التي كذا وكذا وتلك التي تفعل مع فلانة كــذا وكــذا.. وســيرن الهاتف بصوت إحداهن تريد مكالمتك و سيدق جرس البــاب بصديقة تود زيارتك أو تطلب منك الخروج معها..وستقــضين

ساعات على الهاتف تحادثين هذه الفتاة أو تلك عن الملابس و المحلات و آخر أخبار الصديقات.. وستمرحين..سيذوب قلبك ضحكا..ستكون حياتك وردية جميلة.. سيرى الجميع حنان وسط مجموعة من الصديقات..لن تكوني وحدكِ..ستكون حياتك كحياة كل الفتيات..نعم، ستكون حياتك كحياة كل الفتيات.. ".

أراحني هذا الصوت الذي نادى بالحلم الذي لطالما حلمته..قلت لنفسي إنه على وشك أن يتحقق..وابتسمت..كم كنت أتمنى هذا يا إلهي..لعب وكلام وصديقات وضحك..ستموت الوحدة..سترحل علامات النضج عن وجهي..ستمتلئ روحي بالجنون أمام الجميع.. ليس في السر وحسب..رباه!! لكني لم أنعم بحلمي كثيرًا حتى بدأ صوت آخر بداخلي بالرد عليه "حنان، إن خلعتِ الحجاب لن تكوني حنان التي عرفتها..ستخسرين مبادئكِ..لن يعود هناك حنان القوية ذات الإرادة والأمل..ستتبخر.. لن تشعري بطعم النجاح الخاص الذي كنت تشعرين به عند تحقيق هدف ما..هذه السعادة عندما تستلمين شهادة تقدير أمام جميع المدرسة وينظر إليكِ الجميع في احترام و إعجاب أنك تمثلين بلدكِ و دينكِ ووطنكِ.. تمثلين نفسك..أنسيتِ كلمات معلمتك التي قالتها لكِ في نهاية العام الدراسي الماضي؟ أنها ستتذكرك دائمًا وأنها

تأمـــل أن تـــدرّس لطالبـــة مـــصرية أخـــرى في المـــستقبل؟ حنان..أنسيتِ كل هذا؟..هل ستضحين بمبادئكِ وشخـــصكِ لأنك تريدين حياة وردية قد لا تتحقق؟ ..لأنـــكِ أصـــبحتِ ضعيفة؟..ضعيفة يا حنان؟ .. ". أوجعني قلبي وكانت تتـــذمر نفسي..أردت أن أسمع كلام الصوتين معًا..لكن أبدًا لن يلتقـــي الأول بالثاني..أبدًا..وبتُ في حيرة وألم..

اليوم التالي (الجمعة) :

أردت الاستيقاظ؟..لا أعرف..كانت السماء غائمة على أية حال.. حتى الشمس التي قلما تطلع لم تظهر لأجلـــي في هـــذا اليوم..قابلت أمي لأبدأ وصلة بكاء أخرى..تركتها و ذهبـــت أرتدي ملابسي..والحجاب في يدي أذهب وآتي به لا أعـــرف ماذا أفعل.. وصليت..وسألت ربي أن يرشـــدني..أن يطمـــئن قلبي..مشّطت شعري..أنسقه بتأن..نظرت لنفـــسي..إنـــسان مختلف تمامًا.. لكني رجعت ربطته..ثم وجـــدت يـــدي تفكـــه و تجمله كأنها تعلمت هذا منذ أن ولدت.. وتركت طـــرحتي.. حضرت كل شيء سأحتاجه لليوم الدراسي أتجنب أية فرصـــة للحديث مع أي أحد في المنزل و أحمد الله أن أبي كان لايـــزال نائماً..وأينما تحركت نظرت إلى نفسي في المـــرآة..جلـــست

أشاور عقلي..قررت أني سأخلع الحجاب أثناء الدوام المدرسي لكني سأرتديه في أي وقت آخر..أردت أن أرجع عما عزمت عليه لكني كنت خائفة..وهكذا حتى نادت أمي علينا للذهاب إلى المدرسة..وفتحت باب المنزل..أحسست بالبرودة على وجهي ومنه تتسلل إلى روحي..فطلبت منهم أن ينتظروني..وما هي إلا بضع ثوان وخرجت لهم لتنقلب ملامح أمي في دهشة وتقول:

"إيه ده؟..إنتي نبستيه ليه تاني؟".

فقلت لها وأنا أضبط الطرحة على رأسي أمام المرآة:

"هو كده".

فعلقت:

"لا حول ولا قوة إلا بالله..إنتي حرة".

وانطلقنا إلى المدرسة..

الآن :

أما عن الآن فالشمس تطلع على روحي إن لم يكن في سماء أيرلندا الغائمة طوال العام ..وأخيرًا!!!! التقى الصوتان معًا..فأنا في أجمل وأروع حالاتي.. لم أكن في حالة استقرار نفسي كهذه منذ أربع سنوات..يومها و بمجرد دخولي من باب المدرسة

قابلت مني..وما أروعها..تلك الفتاة التي أنارت حياتي كلها..وقابلت جابريل.. صديقتي الفلبينية الطيبة الباسمة..هذا غير أني تعرفت على معظم البنات الأجنبيات في السنة الخامسة و بعض اللاتي في السنوات الأخرى..وعلاقتي طيبة مع بعض البنات الأيرلنديات، هؤلاء اللائي يتقبلن كلامي معهن..صحيح، نحن لسنا صديقات..لكن على الأقل أنا لست منبوذة بينهم..وولدت طاقة الأمل القوية بداخلي مرة أخرى وضاعفت محاولاتي في التعايش مع من حولي..ولأول مرة في حياتي: نجحت..حتى أني قد أقول نجحت بتقدير جيد جدا (سأكون متواضعة و لن أقول "امتياز"!)..وبالرغم من أنه لازال هناك من يقلد أصوات الخنازير عندما أتكلم أو يدفعني أو يريد إيقاعي أو يصرخ في وجهي..أو حتى يقول "... محمد" أو "محمد ...." في المدرسة أو غيرها إلا أن أعدادهم قلت كثيرًا عما كانت عليه في بداية الدراسة..وأظن أني لم أترك فرصة لهؤلاء في التمادي في أفعالهم و لم أرد عليهم بنفس أسلوبهم غير الحضاري ..

وها أنا.. أسعد إنسان في الكون..أردد أني لن أتخلى عن مبادئي في وجه بعض البشر الضعفاء الذين لو تدبروا لمدة خمس دقائق لا غير قد يغيروا كل نظرتهم للحياة..

(٤)

الخميس، ٢٧ سبتمبر

أوحشتني أيتها الأوراق! نعم، لقد اشتقت إليك.. لم أكن أعلم أنك ستضفين على حياتي روحًا أكثر انتماء وعروبة..وها أنا قد علمت..وها أنا أسعد بهذا..

يراودني إحساس بأني أريد أن أدلي لك بسر من أسراري..

ما رأيك؟

إذن خمني.. تخيلي هذا السر..سأعطيكِ فرصة للتفكير..لعل وعسى..!

من الواضح جدًا أنك عجزتِ.. لأنك لا تجيبين!..ولهذا فسأقول لكِ ما أريد قوله..هناك فروق كثيرة بيننا و بين الأيرلنديات..ومنها مثلاً فرق كهذا..

تدخل إيفة أو روشين الفصل.. وتكون إما ضاحكة وإما باكية..وتستقبلها صديقاتها لتجلس وسطهن وتروي حكايتها..فإما رافقت ستيفن إلى السينما (أو الديسكو..على حسب مزاجهما) ليلة أمس و إما اكتشفت أن دافيد يرافق فتاة أخرى ..

وأجلس أنا في ركن آخر من الفصل..أقرأ كتابًا أو أفعل أي شيء تحت يدي و لكني أسمح لمسامعي أن تقفز ناحيـة ركـن الحكايات..وكثيرًا ما أحس بلمسة لعوب خفيفة في قلبي تداعب إحساسي و تثير احمرارًا على وجنتيّ.. لكن سرعان ما ينـهرني عقلي وبأدب أنصت له..

لكني ومع ذلك لا أستطيع أن أمنع نفسي مـن أن تلعـب أحياناً..فأضع نفسي مكان إيفة التي رافقها ستيفن إلى الـسينما (لا داعي لذكر الديسكو)..أو مكان إحدى بطلات القـصص الرومانسية الغربية التي أقرؤها من حين لآخر..وأحيانا أرسـم شخصًا مصريًا خياليًا وأضعه مكان ستيفن هذا..

وأحيانا أخرى أتذمر من عقلي الـذي ينـهرني..وأشـعر بملل..بملل من أنه لا يسمح لي أن أكون مكان إيفة..هذا مع أني أعلم أن رفقة الفتاة مع الفتى وضع خاطئ (بعيدًا عن تقاليدنا.. وأفكر ثم أرجع لتقاليدنا فأجدها صـحيحة)..ستـضحكين إن قلتُ لكِ أني أحيانا أشكو إلى قلبي وأغضب منه..وأغـار مـن الأيرلنديات..

لكني أرجع وأكون عقلانية..فلكل شيء أوان..على أيـة حال أنا لا أمضي وقتا طويلا أفكر في هذه الأمور.. فإني سيدة أعمال مشغولة جدًا!!!

سأحكي لك عن أعمالي الجبارة في وقت لاحق أما الآن فسأريحك من ثرثرتي وأقدم لكي وجهة نظر ناتاليا (زميلتي الروسية) في الحياة..

كنا جالسات في وقت فراغ..ناتاليا وجابريل وأنا..كنا في حصة غابت عنها معلمتنا وطلبت منا المعلمة البديلة أن نكتب أفكارًا لمواضيع نريد مناقشتها لاحقاً عن "حياة العمل"..فبدأنا نكتب وجلبت الكتابة حديثا..استأذنت جابريل للذهاب إلى الحمام ومكثت مع ناتاليا..لتكون هذه أول مرة نتحدث فيها سويًا وأتى الكلام وذهب و من ضمن الحديث قالت ناتاليا عندما سألتها عن رأيها في المدرسة:

"مدرسة؟ أتسمين هذا المكان مدرسة؟".

".......".

"إنها السجن".

"سجن!!".

" "نعم بالطبع سجن..أنا الآن مستعدة لحياتي الجادة المهنية..لا أريد أن آتي إلى المدرسة..أعيش الآن مع صديقي و مستق---".

"تعيشين وحدك يا ناتاليا؟!!".

"نعم، لقد تركت بيت والديّ وأنا في الثالثة عشرة من عمري.. عملت و أتممت دراستي الإعدادية..وأتيت إلى أيرلندا، عملت لمدة عام واحد لأحسّن من لغتي الإنجليزية ثم بدأت أدرس..وأنا الآن في الثامنة عشرة من عمري و أعمل و أعيش مع صديقي في بيت وحدنا".

"وحدك؟ يا إلهي ..".

"يا إلهي لماذا ؟..أستطيع الاعتماد على نفسي الآن".

"أهو أيرلندي؟".

فهزت رأسها سلبًا كأني سألتها سؤالا بديهيًا..

"أيكبرك بكثير؟".

"يبلغ من العمر ثمانية وعشرين".

استغربت لفرق السن ثم سألتها:

"أهذا الوضع آمن؟".

فاتسعت عيناها وحدقت فيّ:

"آمن؟".

فسحبت الكلمة سريعًا قبل أن تفهمني بشكل آخر:

"أقصد أن العيش بمفردكِ يتطلب الكثير من المسؤولية..فأنتِ مسؤولة عن بيت و مصاريف".

"وماذا في ذلك؟ إنه وضع طبيعي..بإمكاني فعل هذا الآن".

"لكنك في الثامنة عشرة فقط..".

" لم أعد صغيرة..".

"لكني لا أستطيع أن أتخيل هذا..".

"يا إلهي !! أنت الآن كبُرتِ وأصبحتِ مسؤولة عن نفسك.. أتريدين أن أذهب إلى أمي أطلب منها مصروفي؟".

فضحكت..وتذكرت عندما قالت لي سابقا إنها تعمل في إحدى الخمارات (بالرغم من شكلها وهيئتها المحترمة والبريئة..فلا أظن أنك إن رأيتِ ناتاليا أيتها الأوراق ستظنين أنها تعمل في خمارة ما).

"أتعيش والدتك في أيرلندا؟".

"نعم، أتت الشهر الماضي هي وأختي..".

"و لا تعيشين معهم؟".

" لا!".

"أتزوريهم إذن؟".

"بالطبع أزورهم، لكني أعيش وحدي، مستقلة بذاتي.." (والله فيكي الخير .. كما قالت أمي).

و أتت جابريل ورددنا بعض حديثنا معها..

ثم خطر ببالي سؤال:

"أتطبخين عندما تذهبين إلى المترل؟".

"بالطبع، أطبخ العشاء لصديقي ثم... ".

و مضت تحكي عن روتين الحياة في بيتها الصغير..

"ماذا عن الواجب المدرسي؟".

"واجب مدرسي!!! أكتب وظائفي هنا في المدرسة".

و كان من الواضح أني كالطفلة أمامها لأنها قالت:

"لماذا تستغربين؟ كل إنسان يجب أن ينفصل عن أهله في يوم ما".

"لكن ليس في سن الثامنة عشرة يا ناتاليا..".

ثم فاجأتني بسؤال جذب كل انتباهي:

"إلى متى ستعيشين على رقبة والديك؟" (أو مثلما نقول بالعامية وأتأسف للفظ "لحد إمتى هتفضلي عايشة على قفا أبوكي وأمك؟" أو مثلما قالتها :

Until when are you going to live on the neck of your parents?

فجاوبتها وأنا ألمح نظرات جابريل التي تنتظر إجابتي هي الأخرى:

"حتى أبلغ من العمر الـ ... الحادية و العشرين ! ..".

ضحكت ناتاليا في تنهد:

"أه .. لا".

و ضحكت جابريل هي الآخرى لكني قلت:

"لا انتظروا، سأنهي دراستي المدرسية..ثم أدخل الجامعة وعندما أتخرج سأبدأ بالعمل".

"و لماذا يجب على والديك الصرف عليك طوال هذه المدة؟".

"لأني مسئوليتهم".

"لا أنتِ لستِ مسئوليتهم، أنتِ إنسان مستقل الآن..لمَ لا تعملي وتدرسي في نفس الوقت؟".

"لأني لن أعطي التعليم حقه الكامل أو العمل حقه الكامل.. سأكون بين الاثنين..".

"و ما الذي تفعلينه الآن؟".

"أعد نفسي لمرحلة العمل".

وجرى الحديث وسألتني عن حياتي في المنزل:

" أنا لا أقول إني من هؤلاء السيدات الفارغات المترفات..أعمل في المنزل بالطبع..وأساعد أمي في المطبخ..لكني آخذ وقتي كله..لا أملك بيتا أطبخ فيه بمفردي..لمَ الاستعجال؟ مازلت أتمرن..".

فهزت رأسها سلبًا مرة آخرى..ونظرت إلّي جابريل ثم قلت (ولا آمل أن تصدقي الآتي أيتها الأوراق فقد قلتها على سبيل الدعابة !!..):

"لكني شبه كارثة في هذا الأمر حتى الآن.. !".

فضحكنا، يرن جرس الحصة في انفعال..وكان هذا كل شيء..

(٥)

الاثنين، ١ أكتوبر

دمتِ لي بخير يا أوراقي ..

إني حائرة..يذهب عقلي و يجيء.. ما قالته لي ناتاليا يشغلني إلى حد ما..أعلم أن حياتها غريبة، في وضع خاطئ وغير صحيح..تعيش وحدها مع رجل هو ليس بزوجها و تعمل بإحدى الخمارات في البلدة ..

لكن ربما حديثها عن استقلال الشخصية والاعتماد على النفس به شيء من الصحة..؟هذه الأشياء التي لا تفكر فيها أية فتاة مصرية حتى دخول الجامعة..أو حتى قد لا تفكر فيها على الإطلاق لأنها كما عاشت "على رقبة" والديها، ستعيش "على رقبة زوجها..

لكني لا أريد أن أعيش "على رقبة" أحد، ولا أظن أن هذا يرتبط بالعرب أو الأوروبيين..وإن كانت هناك أية صلة ارتباط فأنا لا أرى مبررًا لهذا..

قليلة هي النشاطات التي قمت بعملها وحدي خارج نطاق المدرسة.. بل تكاد تكون معدومة إلا من نشاط أو اثنين.. هل أنا حقا طفولية؟ ربما أكون كذلك ..

بالرغم من أني أقدم على تعلم الكثير من الأشـياء إلا أنـه عندما يأتي الأمر لنشاطات خارجية فأنا لا أملـك الـشجاعة الكافية لممارستها..لكني عنـدما أنظـر لحيـاة الأيرلنـديات والأوروبيات من حولي أرى أنها مليئة بالمغامرات.. وآمـل أن أعيش حياة لها أبعاد أكثر وأتمنى أن يكون عندي حكايات أملأ بها صفحات وأوراق في كتب لا نهاية لها..الحرية الكبيرة الـتي تتمتع بها الأيرلنديات قد تكون سلبية في أحيان كثيرة، لكن لها جوانبها الإيجابية في نفس الوقت..فلمَ لا أستخدمها؟ ..

لحظة! يا لكِ من إلهـام أيتـها الأوراق!القـد طـرأت لي فكرة..ممممم ..لقد سمعت مؤخرًا أن المركز الإسلامي في دبلـن (العاصمة) ينظم أنشطة للشباب في الإجازات المدرسية..أظـن أنها تتضمن التخييم أو الكشافة ..

ما رأيك؟ النشاط داخل أيرلندا، و يتبع المركز الإسـلامي (أي أني لن أتعرض لمضايقات ولن أواجـه صـعوبة باللغـة في التعامل مع الآخرين)..هذا غير أن لدي إجازة من المدرسة لمدة أسبوع قريبًا..

هل أذهب؟

أبي لن يمانع على الإطلاق.. قد تقف أمي في مسار المغـامرة لكن أبي بالتأكيد سيقنعها..أنا متأكدة من هذا ..

العائق الأساسي هو أنا..أنا و تفكيري العجيب..عقلي يغار من خبرات الفتيات من حولي و يتمنى أن يشارك في أنشطة المركز.. لكن قلبي خائف، يقول لي إنكِ لست بهذه القوة..أيمكن لحنان أن تستعمل عقلها ليقنع قلبها؟.. يا ربي، إن مجرد كتابة هذا لك أيتها الأوراق يقلقني ..

أتعتقدين أنه أسلوب تربية عربي؟ أم أن العيب فيّ أنا؟

هذا غير ما حدث اليوم ..

من الواضح أن ناتاليا وجدت فيّ ملاذها لتظهر شخصيتها و تخرج من قوقعة الصمت التي تصيب الأجنبيات منا (بسبب التجاهل).. وأعني بهذا "أنها استلمتني .."

كنا ننتظر دخول حصة الاقتصاد : ناتاليا وجابريل وبليسنج ولوريتا (النيجيريتان) وأنا..كنا واقفات في دائرة وحدنا أمام باب الفصل بينما تجمعت الأيرلنديات بعيدًا وجلسن على كراسي في مؤخرة الطرقة.. كنا نتكلم..

و قلت أشاركهن في الحديث عن مواعيد النوم :

"مواعيد النوم مقدسة عند أمي.. يجب عليّ أن أنام في العاشرة من كل ليلة "

نظرت إليّ ناتاليا و علمت أنها على وشك الحديث ..

قالت لوريتا : "يا إلهي.. العاشرة؟"!

و قالت جابريل

"أنا لا أنام حتى الثانية عشرة "

ضحكت بليسنج و سألتني ناتاليا

"كم تبلغين من العمر؟"

"الخامسة عشرة "

و ذكرت مرة آخرى أني أصغر طالبة في السنة الخامسة إذ إن معظم الفتيات في السابعة عشرة والسادسة عشرة من عمرهن..

سكتت و ضحكت معي جابريل (١٧ عاماً) قائلة

"مازلت طفلة يا حنان "!

"لست طفلة يا جابريل"!

و كانت ناتاليا تحدق فيّ فقلت

"بالطبع لدي الحرية في أن أفعل الكثير من الأشياء الآخـــرى في حياتي لكن "-

فانتهزت الفرصة و قالت

"إذن قولي لنا ماذا تفعلين"..

قلت صامتة بيني و بين نفسي:

"إيه ده؟ هو كده يعني؟.. ماشي"...

وذكرت تعليقها السابق أن حياتي مملة و قبـــل أن أحـــاوب قالت :

"تذاكرين طوال الوقت "!

ضحكت جابريل:

"آه.. نعم"

ووافقتها لوريتا:

"نعم، تذاكرين طوال الوقت يا حنان"

فقلت:

"لا.. بالطبع لا أذاكر طوال الوقت..أفعل الكثير من الأشياء الأخرى"..

و سكت الجميع و استمر الحديث بيني و بين ناتاليا :

"مثل؟"

"سأقول لكِ "..

أحسست أني في مأزق.. ما الذي أفعله أكثر مما تفعله أيـــة فتاة أخرى في عمري؟ و ما الذي أقوله أمام فتاة تملـــك بيتـــا وحدها؟.. قررت أني سألغي فكرة الحياة المملة أولا وعاودت :

"بجانب الدراسة..أتصفح الإنترنت..و أزور بعض الأصدقاء أحيانا.. في أوقات أخرى يأتين هم لزيارتي "..

"نعم"..

"و أقرأ ..ذهبت إلى السينما السبت الماضي..وأحيانا أذهب للتسوق.. ليس دائماً "

"نعم.."

كنت أكلمها بشكل سلس وطبيعي وكأنني لا يهمني شيء (حتى أني بدأت بالتأليف فأنا لا أذهب للتسوق إلا إذا أردت شراء شيء ما.. لأنه ربما تكون فعلا حياتي مملة من وجهة نظرهم: ليس بها عنصر ذكوري، وهذه كارثة في حد ذاتها عندهم، ولا أذهب إلى الديسكو، و لا أسهر خارج المنزل، إلخ إلخ) لكن جابريل كانت تعلم أني "متغاظة" فعندما أدارت ناتاليا وجهها نظرت إليّ وضحكت في صمت ..

قلت لناتاليا:

"ليست حياتي بمملة، أليس كذلك؟"

"مملة؟ لا لا.. من قال لك هذا؟"

فقلت للوريتا التي لم تكن تفهم ما أريد الوصول إليه:

"ناتاليا تظن أن حياتي مملة "

لكن لوريتا صدمتني:

"أنا فعلا أظن أنك مملة لأنك دائماً صامتة"!

فقلت:

"نعم، صحيح، أنا دائمًا صامتة في الحصص.. لكن يا لي من فتاة مجنونة في أي وقت آخر "!

و قالت بليسنج:

"يا جماعة.. يجب أن أقول إني أكثر الفتيات مللاً في المدرسة كلها" (بتهدي النفوس قوي الحقيقة)

لكزتني جابريل وضحكت لكني لم أضحك معهـــا..قالـــت ناتاليا:

"كيف لي أن أقول إن حياتك مملة؟ "!!

"صحيح، كيف لك أن تقولي هذا؟ "

و مرت بعض لحظات صامتة ثم قلت لها :

"و ماذا تفعلين أنت إن كان ما أفعل ممل؟ "

وكانت الكلمة التي قتلت كل شـــيء..ضـــاقت عيناهـــا و قالت:

"على الأقل لا أفعل شيئا مما تفعلينه أنتِ"

أحسست بدلو مليء بالماء البارد يُصب فوق رأسي

"إذن ما الذي تفعلينه؟"

"أطـــبخ.. أعـــتني بـــشوون صـــديقي..أعـــتني بـــشوون المترل..أعمل"

كل ما خطر ببالي أنها تريد أن تقول لي إنكِ إنسان تافــه.. يعيش على هامش الحياة ..

"لكنك قلت إنك تحبين فعل كل هذه الأشياء"..

"بالطبع"

وجاءت المعلمة و انتهى الكلام.. نظرت إليّ جابريـــل ولا أعرف ما الذي كنت عليه ودعاها أن تقول لي:

"حنان؟ هل أنت على ما يرام؟"

فجاوبتها باستغراب:

"نعم، أنا بخير "

ولكني لم أكن بخير..أحسست أني مجروحة..بغض النظر عن قوة كلمة "مجروحة"..نظرت لحياتي..وغدوت أسأل نفسي..هل لأني لا أعمل ولست مستقلة بحياتي إذن أنا إنسان فارغ؟ إنسان نكرة؟

أحسست أني غبية..أحسست أني أفقت من غفلة مـــا..ولم أعرف إن كنت قد صـــحوت مـــن الغفلـــة أم أني ســـأدخل فيها..خطر ببالي أنه ربما ظروف ناتاليا المادية هي التي دفعتها أن تعيش حياتها على هذا النحو وأنها وجدت فيّ ما سيحميها مـــن

نقطة ضعفها (وهذه هي نوعية التفكير السلبية التي أكره)..هل المصرية ضئيلة؟ في وجهة نظرها على الأقل؟ لكــني جلــست وفتحت كتابي لأنظر يميني و أراها جالسة تبعد عني بكرســـين، تلك الروسية التي قد تدخلني في الغفلة أو تخرجني منها...

(٦)

الأربعاء، ٣ أكتوبر

اليوم أحس باحمرار ودفء في وجنتيّ من كثرة السعادة..لأسباب عدة، منها ما حدث في حصة كانت معلمتها غائبة عن المدرسة اليوم (أغلب المواقف الحلوة تحدث عندما تغيب المدرسات الأساسيات!) فأخذتما مدرسة بديلة لها،و هذه المدرسة تعلم الأجنبيات الجدد اللغة الإنجليزية لتقويتهن فيها وتطلب من كل واحدة منهم أن تكتب كلمة "هالو" بلغتها وترسم بجانبها علم بلدها و بعد ذلك تلوّن الورقة و تُعلق في منطقة الاستقبال بالمدرسة.. هناك بولندي و فلبيني و صيني وروسي وبرازيلي بجانب اللغات التي تدرس في المدرسة: الفرنسية و الألمانية و الأسبانية و بالتأكيد الأيرلندية والإنجليزية و الآن تستقبل الزوار أيضاً حروف "أهلا و سهلا" العربية المصرية.. نعم، فقد طلبت مني المعلمة فعل هذا و كم كنت سعيدة أنا بكتابة "أهلاً و سهلاً " ورسم علم وطني مصر وشرحه للمعلمة.. أحسست أني مستقلة، أني فخورة ببلدي.. أني أمثلها.. أني "الجسر" الوحيد في المدرسة الذي يربط أيرلندا بمصر و ربما لولاي لما وجدوا إجابات لهذه الأسئلة التي يسألوني

إياها (بالتأكيد لديهم أن يقرؤوا أو يغوصوا في بحار الإنترنت لكي أوفر خدمة حية و واقعية و سريعة!)

أحياناً أتلقى أسئلة مثل "هل تعيشون في الأهرامات؟" .. "هل تكتبون بالهيروغليفية؟".. "هل تستخدمون الجمال كوسيلة للتنقل؟!!".

فإذن لكِ الآن أن تعرفي لَمَ أنا مفيدة!

أفكرتِ في ناتاليا يا وريقاتي؟ عن نفسي، يجب أن أقول أني فكرت.. بل تركت التفكير لأمي و الكلام لي..حادثت ماما.. تلك الإنسان التي تعيش في حياة بناتها المغتربات أكثر من الأمهات الأخريات اللاتي تربي بناتهن في أوطانهن..

قالت لي أمي إن ناتاليا و أمثالها يعرفن أن حياتهن غير سوية، أو بها شيء من الخطأ أو شيء غير عادي.. و لذلك فهن يردن لجميع الفتيات نفس الحياة.. كي لا يشعرن أنهن مختلفات أو حتى مذنبات.. لكن أية فتاة تتمنى الإحساس بالأمان و تتمنى أن تعيش وسط عائلتها معززة مكرمة..

"هم المخطئون.. أنتِ على السبيل الصحيح يا حنان.. حياتكِ أنتِ هي الكريمة.."

لكني لم أجد سوى أن أحادثها.. فقلت:

"لنتاليا ظروفها فقد قالت إنها أتت لإيرلندا لأنها لم تقدر على مصاريف التعليم في بلدها و إنها تعطي جزءًا من مرتبها الحالي لأمها وأختها.."

لكن لم تخلُ جعبة أمي و قالت:

"ماذا عن هذا الذي تعيشُ معه؟".

"وضع طبيعي بالنسبة إليهم..ثم هو أيضًا يصرف عليها..".

"كيف؟".

"يدفع إيجار المنزل..".

"لا يوجد هنا شيء كهذا.. إن كان هو يدفع إيجار المنزل فربما تدفع هي ثمن الطعام و الشراب و إلى آخره من الاحتياجات المنزلية".

"لكنها مازالت توفر مصاريفها بعيدًا عن أهلها".

"كان بإمكانها إذن أن تعيش في إحدى البيوت اللاتي يشترك في معيشتها و إيجارها عدة أشخاص.. عدة فتيات.. ليس مع رجل وحدها".

و نعم، أنتِ على حق يا أمي.. أحسست باطمئنان.. أنا راضية عن حياتي.. و سعيدة بها.. لا يوجد أحلى من أن أحتفظ بكياني و شخصيتي و في نفس الوقت أكون بين عائلتي..

محفوظة.. آمنة.. و مكرمة.. و إن كان على البيت و العمـــل.. فلهذا أوان لم يحن بعد..

آه يا أوراقي.. لقد اشتقت لمصر.. نعم، اشـــتقت إليهـــا.. اشتقت إليها بكل ما وهبني الله من إحساس و مشاعر..

لكنك كنتِ هناك منذ شهرين فقط يا حنان..

لكني مازلت أحن إليها.. ألا يُسمح لي بهذا ؟.. يا إلهـــي.. ماذا أقول لك عن الغربة؟

أحيانا أبعد مصر و أهلها و ذكرياتها و نيلها (الذي مولعة به أنا..) وشوارعها و حكاويهـــا و مـــشاكلها عـــن عقلـــي و تفكيري و أركز كل اهتمامي في حياتي بأيرلندا حتى لا أشعر بهذه الأنة في قلبي.. أنة الغربة.. و أحيانا أغوص جدًا في حياتي الغربية الأيرلندية لدرجة أني أنسى تمامًا أن هناك مكانـــا آخـــر أنتمي إليه..

لكن يأتي يوم أكون جالسة فيه أمام التلفاز.. أتنقـــل بـــين القنوات و أجد أن "تلفزيون النيل" أو "النايل تي في" به إحدى الشرائط القصيرة التي تعرض مناظر للقاهرة أو للنيـــل..أشـــعر برعشة في كل أنحاء جسدي، إن لم تكن شبه رجـــة في قلـــبي وكأني أفقت فجأة.. وكأني كنت أسير بقارب في نهر لا أعرف له نهاية حتى وصلت إلى شلال شدني إليه و جذبني ناحيته بقوة

وقفزت معه تحت مياهه المندفعة لتمتلئ روحي بنسيم من الأحاسيس يزلزل نفسي، يسري بداخلي و يهمس بجانب عيني فتترل دموعي و أشعر بالذنب.. أشعر أني إنسان بشع.. أني تعمدت أن أنسى كل هذا الدفء و الجمال.. وتعود الأنة الأليمة إلي قلبي.. لكنه ليس بيدي.. لم أكن أقصد.. الغربة موحشة و قاسية.. يجب أن أحايلها.. أن تراودكِ أحلام عن مدرستك القديمة وعن أهلك وبيتك و شارعك.. ولا تستطيعين أن تصلي إليهم يا أوراقي.. وأن تكتشفي عندما تستيقظين أنها مجرد أضغاث أحلام.. شيء قاس.. حزين..

لكني أرجع و أنظر لباطن يدي تحت معصمي لأري عرقين صغيرين يجمعهم عرق آخر أطول.. و أبتسم..

إنه النيل.. يسري في دمي.. يهبني الحياة..

(٧)

الجمعة، ٥ أكتوبر

ظهرت الشمس في سماء أيرلندا اليوم.. يا ربي، كم أعشقها! شمس هادئة حنون، تعطي النور لكل شيء تلمسه.. وكأنها طفل يضحك في نقاء.. أتعلمين منذ متى لم أر الشمس؟ منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا.. و الحمد لله استجاب الله لدعائي.. لا أحب أن أستيقظ و أجد السماء ملغومة بالسحب وأن تؤكد عليّ أمي أن آخذ شمسيتي معي.. لم أعد أحب المطر.. قبل أن آتي إلي أيرلندا "حوادث" المطر التي أتذكرها كانت حوالي خمس أو ست "حوادث" أما هنا فهي تمطر كل يوم تقريبًا (لهذا فأيرلندا هي البلد الأخضر!)..تمطر و تمطر و تمطر حتى مللت و لم أعد أتحمس لهذا المطر الغزير جدًا الذي أدهشني أول ما أتيت.. أميل إلي الشمس بطبعي على أية حال..

علي سيرة المطر.. في مرة عندما كانت تمطر وكنا ننتقل إلي فصول خارج مبنى المدرسة الأساسي ضحكت معي إحدى المدرسات وقالت لي إنك محمية من المطر. لأني أرتدي الحجاب! .. و لكِ أن تبني رأيكِ الخاص على هذا.. لأني أريد أن أحكي لكِ شيءَ آخر اليوم..

اليوم هو الجمعة، آخر أيام الأسبوع الدراسي.. كنا في طريق العودة من المدرسة في السيارة وكانت معنا دانة (صديقتي العراقية،١٥ سنة) إذ إنها جارتنا و تذهب إلى نفس مدرستنا أيضًا (دائمًا نقول هذه الجملة و قلتها لمنى مؤخرًا: " متقوليش كده، هو إحنا لينا غير بعض في الغربة يا منى؟ ده إحنا إخوات يا بنتي")..

كانت السيارة واقفة في إشارة ما و لا إراديًا نظرت إلى السيارة التي كانت تقف بجانبنا، كانت تقودها امرأة أيرلندية و بدلا من أن أنظر بعيدًا من أول وهلة قطبت جبيني لها ثم نظرت بعيدًا، مما أدهشني إذ إنها كانت المرة الثانية التي أكرر فيها هذا الأمر اليوم.. أحسست أن دانة لاحظت ما فعلت فقلت في تلقائية لا أفكر في كلامي أو تصرفي:

"لا أعرف ما هذا الأمر.. أحس أني أريد أن أعبس في وجه أي أيرلندي أراه اليوم".

صمتت أمي و لكن دانة ضحكت و قالت:

"لماذا يا حنان؟!!".

"لا أعرف.. شيء غريب.. فقط، لدي هذا الإحساس.. أريد أن أعبس في وجه أي أيرلندي أراه اليوم".

لم تعلق أمي بأي تعليق مفيد و بعد أن ضحكت على نفسي وجدت دانة تقول لي في استنتاج بحنان:

"أظن أنه رد فعل لشيء حدث سابقاً".

"ماذا تقصدين! لكن .. ".

قُطع كلامي بذكرى ما.. ثم عاودت:

"لكني لست من هذه النوعية من الناس.. الانتقـــام و هـــذه الأشياء..".

"لكن ليس هناك شخص نقي مائة بالمائة أيضًا".

" أعلم هذا و لكن.. ".

"حتى و إن كان هذا الإنسان صالح.. فعلى بيـــاض حياتـــه ستجدين نقاطا سوداء هنا و هناك ".

"يجوز".

و كنا قد وصلنا أمام بيتها لحظتها فانتهى الحديث (كانت تتحدث بالإنجليزية كما هي عادتها عندما تبدأ بالحديث في شيء هام..) و أخذت حقيبتها تقول:

"شكراً طنط.. باي رنا، مع السلامة حنان".

"باي يا دانة".

و تنظر إليّ في ابتسام و تلوح لي بيدها "إلى اللقاء" فألوح لها أنا الأخرى و أبتسم..

و رجعنا بيتنا.. هل تعتقدين أن دانة كانت محقة؟ أأريد أن آخذ "بثأري" كما يقولون؟! ما فكرت بهذا الأسلوب في عمري، لكنه كان شعور لا إرادي، لم أستطع أن أمنعه.. وعلى أية حال وقع شخصان فقط ضحيتي اليوم و على الأرجح ظنوا أني مريضة نفسية، من العاقل الذي يحدق في خلق الله حتى ينظروا إليه ثم يعبس في وجوههم و ينظر بعيدًا ؟؟!!

لكني طبيعية الآن، لا داعي للقلق..

أحب دانة.. أو بمعنى أصح، أحببتها جدًا اليوم.. نختلف في وجهات نظرنا لكن يجمعنا شيء ما.. فبالرغم من أن كل واحدة منا لها طباع حادة أحيانا (وها أنا أخيرًا أعترف أني حادة في بعض الأوقات معها، أين أنتِ يا أمي لتسمعي هذا؟) إلا أننا نحب بعضنا البعض.

هناك ذلك الشيء الغامض الذي يجمعنا.

دانة ولدت في العراق و عاشت هناك حتى أتمت الرابعة أو الخامسة من عمرها و أغلب ما تذكره عن بغداد قالته لها والدتها.. دانة هي واحدة من أولئك الذين يخفون وطنيتهم لكنهم يعتزون بها في السر: هذا ما تظنه مني، تقول لي طيلة الوقت إن دانة "مو منا".. فدانة تعودت جداً على الثقافة الغربية لأنها تربت فيها و تكاد تكون أيرلندية أكثر من كونها عراقية..

وما يزعج منى جدًا هو أنه أحياناً نكون جالسين جميعاً : دانة و صديقتاها الأيرلنديتان (كيرا و جودي) و منى و مريم ورنا أختي و أنا.. و تقول دانة شيئا فيضحك الجميع ما عدا منى و مريم.. إذ إن نكات و ضحكات الغرب مختلفة.. هذا غير أن طريقة الحديث بأكملها مختلفة تمامًا : من التعبيرات على الوجه وحركات الأيدي و الكلمات إلى المواضيع والأفكار والضحك و كل شيء كل شيء.. لكني أصبحت أعرفها وأفهمها و أحس أنه فعلا هناك شيء ما يضحك أو حتى يدعو للابتسام.. ولأن منى جديدة فهي تحس أنها غريبة وتتضايق، خاصة من دانة.. لأنها ظنت أنها ستجد صديقة جديدة قريبة منها أو حتى صديقة وقفت بين الحضارتين مثلي لكنها وجدت إنسانا من كوكب آخر (مزيج أيرلندي غربي عربي غير عربي!).. أذكر أنه في مرة اختنقت الدموع في عينيّ منى فقمت معها نمشي سويا لتذرف دمعها في صمت بعيدا عنهن و بعد أن هدأت جلسنا سويا و تكلمنا ولأنهي كلامي قلت:

"منى.. ما تتضيقيش.. هتتعودي والله.. يعني.. أنا حاسة بيكي.. زي ما تكوني في عالم تاني.. بس هما الأجانب كده، مختلفين في كل حاجة في حياتهم.. ساعات حتى بتحسيهم باردين.. بيتكلموا غير ما بنتكلم، بيضحكوا على حاجات إحنا مش بنضحك عليها".

"أيوه صح، بيقولوا شي و يفرطوا من الضحك و على إيش؟ والله ما بأعرف.. ".

فضحكت و قلت:

"يا ستي، ماتخديش في بالك.. إللي يعيش ياما يشوف.. يا نهارًا، إيه الاكتئاب إللي إنتي عايشة فيه ده؟، يا ربنا.."

فمسحت عينيها و قالت:

"صحيح حنان.. دقتي المعمول إللي عملته ماما؟".

"آه.. حلو أوي.. دوقتي الكحك بتاعنا؟".

" بيجنن، زاكي كتير كتير".

"بجد؟.. طب دقتي البيتيفور؟على فكرة أنا إللي حطيت فيــه المربى و الفستق إللي فوق".

"يوووه، وشفتي كيف المعمول صار إله شكل هيك.. هــادا أنا إللي مساويته".

فضحكنا و أكملنا كلامنا لنرجع إليهن و أتنحى عن مجلسي معهن، أجلس بعيدًا مع مني و مريم، و نتكلم.. أذكر كل شيء عربي عشقته في حياتي و أذكر أني في يوم من الأيام كنت مثــل مني تمامًا..

أما عن دانة.. فإني أقدر جهدها بالرغم من كل شيء، فهي تصلي بانتظام الآن على عكس ما كانت عليه أول ما قابلتها..

و تبذل قصارى جهدها في الحديث باللغة العربية بالرغم من أنها تخطئ في كثير من الأحيان، لكننا نفهم ما تريد قوله أو نـــصلح لها ما تقول و كلانا يأخذ الموضوع بمداعبة.. لكني لا ألومهـــا وأذكر تمامًا تلك النبرة الحزينة التي خرجت منها عندما قالـــت لي:

"على الأقل كانت لديكِ الفرصة أن تعيشي في بلد عربي يا حنان".

فابتسمنا في أعين بعضنا تتكلم قلوبنا أننا واحد و أردت أن أقول لها "لا تحزني يا دانة.. نحن معك، و ستعود العراق إليكِ.. " و لكني غيرت الموضوع..

و في يوم من الأيام أتت أمي بشريط قديم من عندها به أغنية "موطني".. تلك التي تقول "موطني موطني، الجلال و الجمـــال و السناء و البهاء في رباه.."

عندما سمعناها في السيارة مع دانة قلت:

"ما أجمل هذه الأغنية..".

فقالت:

"نعم، قالت لي أمي إنه النشيد الوطني العراقي.. أحبه".

"أغنية جميلة جدًا .. مهما سمعتها أحس دائمًا بهذه الرعـــشة في جسدي". و دندنت دانة الأغنية وأكملنا الطريق إلى البيت.. ندندن سويًا..

(٨)

الاثنين، ٨ أكتوبر

يا إلهي أكاد لا أستطيع الكف عن الضحك!! هذا النـــهار "تحفة" كما نقول بالعامية (و بعدين يعني متهيألي إنه من حقـــي إني أعبر شوية عن مرحلة المراهقة إللي أنا فيها و أنطلق و أحط لي كلمة ولا كلمتين بالعامية!!) .

الأيرلندية جميلة جدًا جدًا.. صرنا أصدقاء، و منـــها زادت علاقتي بجين:

Dawn دون :

دون تلك الفتاة الأيرلندية جميلة جداً جـــداً و منـــها زادت علاقتي بجين Jeanne دون و جين و ألكـــسندرا، أحبـــهن، يمثلن لي الحب و الدفء و الطيبة الأيرلندية التي لطالما عهـــدتها (ولكني حرمت منها لفترة ما) ومعهـــن أشـــعر أني في منتـــهى الجنون، أني فتاة صغيرة مليئة بالحيوية! يا إلهي، أشعر أني مررت بظروف قاسية ولكن الله بدلا من أن يمنحني ظروفا أحسن منها حالا، منحني ظروفا من أجمل و أروع ما يمكن.. أحبك يا ربي و أحمدك كثيرًا..أنا الآن في حصة الأحياء و لكـــن لا تقلقـــي، لست منشغلة عن الدرس، فظهر اليوم عندنا حـــصتان أحيـــاء و نحن الآن في فترة الراحة القصيرة بينهما.. ندرس عن الدي إن آي DNA وما أدراك ما الدي إن آي.. يا إلهي، كم معقـــد

هذا الشيء، و بالرغم من ذلك ندرسه حتى التفاصيل المملـــة.. كان الله معنا!! الثانوية العامة هذه كابوس بشع شـــنيع.. مـــا علينا، الجو رائع اليوم، بالرغم من أني لازلت مصممة ألا أخلع سترتي الصوفية و أن أظل مثل إحدى دببة القطـــب الـــشمالي منتفخة وثقيلة (حتى أن ناتاليا وجين يـــضحكن علـــيّ) إلا أن أشعة الشمسْ الخافتة فرشت نورها الصافي على الأرض في حنو ودلال.. يا إلهي، يجب عليّ أن أذهب الآن، لقد عادت المدرسة إلى المعمل.. سأراكِ لاحقاً.. (شكرًا على تلك اللحظات التأملية التي منحتني إياها من بين ساعات الغـــرق في درس الـــدي إن آي..!)

(٩)

الخميس، ١١ أكتوبر

مساااء الخييييير (إني أتثاءب..!)كم أني متعبة اليوم يا وريقاتي.. أحس بإرهاق و ضعف يتنامى في كل أرجاء جسدي.. كان يومًا طويلا جدًا.. كان عليّ اختبار تاريخ اليوم و تقديم مراجعة درس الإنتاج في حصة الاقتصاد و بدأنا الهندسة التحليلة (السخيفة جدًا) في الرياضيات و كان عليّ واجب سماعي للغة الفرنسية و تحليل الفصل الأول من مسرحية ماكبث في اللغة الإنجليزية و طبقنا تجربتين لاستخراج الدي إن آي من النباتات في معمل الأحياء.. و ذهبت إلى المركز الرياضي مع أمي بعد الغداء و رتبت غرفتي.. و تعبت.. أحس أني كمن كان يدور و يدور و أخيرًا أتيحت له الفرصة كي يقف ويتنفس.. وها أنا أكتب إليك جالسة بين غطاء سريري أستمع لمحمد منير كعادتي "لما النسيم.." يثير صوته رعشة بداخلي.. ويشعرني بكياني كله.. أتعلمين ماذا تذكرت الآن أيضًا يا أوراقي؟ سأقول لكِ.. اليوم كانت عندنا محاضرة في المدرسة.. إحدى حملات التوعية.. لكنها لم تكن مثل باقي حملات التوعية.. لم تكن عن المخدرات أو العنصرية أو اتخاذ القرارات.. أو حتى "كيف أحب الرياضيات؟"..كانت حساسة

جدًا.. وكم أكره أنا المحاضرات الحساسة.. العام الماضي كانت لدينا محاضرة عن سن البلوغ لدى الفتاة و الفتى.. وكانت لدينا محاضرة عن الأمراض التي تنتقل عبر ممارسة علاقات بين الرجل و المرأة.. وكنت إما أجلس في أول صف في القاعة أو في آخر صف فيها حتى لا أحتك بأي أحد.. أما اليوم فكنت جالسة بجانب جابريل في الصف الأمامي وجلست خلفنا ناتاليا.. كانت المحاضرة عن الحمل بين المراهقات.. عندما بدأت مقدمة المحاضرة بالكلام قلت في نفسي:

"يا دي المشكلة.. أهو ده إللي كنت ناقصاه.. لأ بجد أتحفوني، يعني أنا مالي و مال الكلام ده؟.. بنات معندهاش دم".

اتضح أن الأمر منتشر جدًا بين الفتيات المراهقات لأنهن يمارسون علاقات بدون توعية.. و بدأت أبعد تركيزي عن المحاضرة و أفكر في كم أنه شيء مقزز..كما أني لو كنت مكان أي من هؤلاء الفتيات لكانت ضاعت عفتي و كرامتي.. و لكان ضاع إحساسي بكياني و نقاء حياتي.. و بدأت يداي ترتعشان بعض الشيء فرجعت إلى المحاضرة و كانت تقول السيدة التي تلقيها:

"بالتأكيد جميعكم تعرفون فتاة في مثل عمركم أتت بطفل مؤخرًا.. أليس كذلك؟ ارفعن أيديكن لنرى كم منكن

يوافقني.." وكنت جالسة أمامها فنظـــرت إليّ و لم أرد علـــى نظرتها.. نظرت حولي لأحد أن معظم إن لم يكن كل الفتيـــات رفعوا ايديهم.. قفلت في نفسي "يـــاااا ســـلام.." و عـــاودت السيدة: "هناك العديد من المنظمات التي تساعد الفتيات الـــلاتي يأتيهن الحمل في هذه السن.. أنـــا أعمـــل في إحـــدى هـــذه المنظمات.. نقوم بتأمين عمل للفتاة حتى تستطيع أن تـــصرف على نفسها وعلى مولودها.. و نقوم بحلقات دراسية عن كيفية الاعتناء بالطفل و هو لايزال جنينا و بعد ولادتـــه.. و نقـــوم بالاتصال مع الأهل.. و يكون الأب قد جن جنونـــه لأنـــه لا يستطيع أن يتخيل كيف أن ابنته مارست الجنس بإرادتها و من وراء ظهره.. لكنه يتقبل الوضع بعد حين.. فهو أمـــر واقـــع و يجب التعايش معه.. و نقوم أيضاً بالاتـــصال مـــع المدرســـة لإخطارها بأن فلانة ستترك الدراسة لكننا نـــرجح دائمـــاً أن تستمر الفتاة في دراستها و بالتأكيد ستدعمها المدرسة و تـــوفر لها عناية خاصة..

وبالطبع نقوم بالاتصال مع الطرف الآخر.. والد الجـــنين.. فالكثير منهم لا يشعر بالمسؤولية و يريد التخلي عـــن الفتـــاة و الطفل.. ولكن أيضًا هناك منهم من يفرح جدًا ويقف بجانب الفتاة..".

و هنا لم أستطع السيطرة على نفسي و همست:

"لا فيه الخير..". و تطور الحديث إلى كيفية تجنب الحمل من الأساس و كيفية ممارسة علاقة صحية صحيحة.. وكرهت الساعة حينها.. كم كانت بطيئة وكم كان بطؤها يخنق كل ما بداخلي من صفاء و يملؤه دخانا قاتمًا.. مرت لحظات أحسست فيها بدوار.. ولحظات أخرى.أحسست فيها أننا أمام تلك السيدة مجردات من أي احترام أو حياء.. سألت ناتاليا: "ما هي أفضل وسيلة لتجنب الحمل؟".

تنبهت لها.. و نظرت إلى الأرض.. أتذكر كم أن حياتها مختلفة..

جاوبتها السيدة:

"أفضل وسيلة؟".

"نعم..".

"أفضل وسيلة هي عدم ممارسة الجنس".

ضحك جميع الفتيات لكني أحسست بوجهي يمتلئ بحمرة وردية تمدني بدفء طفولي و تغرقني للحظة في عالم آخر مفعم بملائكة همس لي.. تدخل و تخرج من بين حنايا روحي.. أحبها وأعشق رقتها و أخجل منها.. نظرت إليّ جابريل وقالت:

"لا يعجبك ما يقال، أليس كذلك؟".

فهززت رأسي سلبًا و قلت:

"أتعرفين فتاة مرت بشيء مماثل؟".

"نعم.. و لكن الأمر في الفلبين ليس منتشرًا مثل ما هو عليه هنا.. نحن أكثر حفاظاً".

ووجدت جابريل تنظر لي في حياء حتى عرفت أن هناك إحدى المعلمات أتت لتقف بجانبنا (كنا جالسات على طرف الصف الأمامي) و هذا يعني أنها تطلب منا السكوت.. أو أنها تريد الاستماع لرأي الطالبات و لكن بطريقة غير مباشرة.. فالتزمنا الصمت.. و بعدها بقليل انتهت المحاضرة و بدأت الفسحة.. لم أذكر أي شيء عنها لمنى.. لم أذكر أي شيء عنها لأي أحد سواكِ يا وريقاتي.. لست ضد مثل هذه الحملات من التوعية.. بل هي مهمة جدًا عندما تكون مبينة على أسس علمية وأسلوب مختص و ناضج.. لكن ليس بهذا الأسلوب.. أعلم أن هذه عاداتهم.. و لكن يقال في هذه المحاضرات الكثير من الأشياء التي أحس أنها تخدش الحياء.. حيائي على أية حال.لا أعرف إن كان لفتاة في علاقة مثل هذه أي حياء.. المشكلة هي كيفية إلقاء المحاضرة و أسلوب تناولها.. حتى أني لا أستطيع أن أكتب إليك كل شيء.. بعدها ظلت جين تشاكسني، وتحدثني عن الأولاد، ولكنها كانت تلعب لا غير، فهي تعلم أننا لا نصادق فتياناً.. يا إلهي، كم أشعر بالنعاس الليلة.. سأذهب أشرب بعض الماء و آتي لأنام.. تصبحين على خير يا وريقاتي..

(١٠)

الأحد، ١٤ أكتوبر

"بغيب لكن برجع و أحن لحضنك الدافي.. بغيب لكن برجع و أحن لنيلك الصافي..".

ملأت أنغام برنامج "البيت بيتك" بيتنا و هزت ذكرى قريبة في عقلي.. كنا كلنا جلوسًا أمام التلفاز، في يد أبي كوب الشاي المصري الذي لا مفر من شربه بعد العشاء.. و كنت آكل بعض الأيس الكريم البارد.. و لا أعرف إن كانت برودته أم برودة الذكرى هي التي منعت أية رعشة إحساس من المرور بجسدي عند سماع هذه الأغنية الغالية.. و قررت أن أكشف عن محادثتي مع ميس أوكونل، تلك التي دارت قبل بضعة أيام.. أو ربما أكشف عما انتابني من إحساس بعد محادثتي مع ميس أوكونل..

و بدأت جولتي الحائرة مع أبي..

"بابا؟ سأسألك سؤالا..".

"اسألي.. كلي آذان صاغية.. ها؟".

"في أيهما تحس ببيتك.. مصر أم هنا؟".

تغلغل الهدوء في عينيه و قال:

"مصر طبعًا..".

"ممم..".

أردت إجابة أكبر من هذه.. أفيد من هذه.. و عاود أبي: "بالطبع أشعر باستقرار أكبر هنا.. فهنا عملي و إقامتي ومدارسكم و إلى آخره من هذه الأشياء..".

"نعم.. تحس أن هنا هو المكان الطبيعي..".

"بشكل أو بآخر.. نعم.. لَمَ تسألين؟".

"أبدًا.. مجرد سؤال..".

و صمت.. و نظر إليّ أبي يسألني وجهه في صمت "ما الذي تريدين الوصول إليه يا حنان؟".. فكسرت كل فكرة أو إحساس قد يعوقني عن الكلام و قلت أبدأ الحكاية:

"كنت وحدي مع ميس أوكونل في حصة اللغة الإنجليزية الإضافية.. و تحدثنا عن الجامعات في أيرلندا..".

لا أعرف كيف لدى أبي المقدرة ألا تتغير ملامح وجهه أثناء الكلام معي.. ظل وجهه هادئا و منصتا و بدأت أمي تهتم أكثر بما أقول..

"سألتها إذا كانت الجامعات الأيرلندية تستحق أن أمد إقامتي في أيرلندا لأدرس بها.. وقالت إنها تخرجت حديثا و أنها تظن أن الجامعات الأيرلندية، خصوصاً الحديث منها، ذات

مستوى عالٍ و جيد جدًا.. قالت أيضًا إنها تكاد تكون من أحسن الجامعات في أوروبا-"

قاطعت أمي في دهشة:

"أحسن الجامعات في أوروبا؟ .. هنا، في أيرلندا؟".

"نعم.. قالت لي إنه لا مجال للمقارنة بالجامعات العريقة مثل أوكسفورد أو كامبريدج في بريطانيا لكن على ساحة الجامعات الأخرى فالجامعات الأيرلندية من أحسن الجامعات في أوروبا.. سألتني ما الذي أنوي فعله و قلت لها إننا ننوي أن أنهي الدراسة الثانوية في أيرلندا و من ثم نعود إلى مصر لدخول الجامعة هناك.. و ما يقلقني هو أني تعودت على نظام التعليم في أيرلندا و على الحياة في أيرلندا و أن التعليم في مصر مختلف جدًا.. و أني أخاف أن يكون من الصعب عليّ أن أحوّل حياتي الدراسية إلى نظام مختلف بهذه الطريقة..".

ذكرت مدرستي المصرية التي أحببتها دائماً.. لكني أبدأ حياتي، و لن تنفعني الذكريات..

" ثم سألتها إن.. سألتها إن كانت لدي فرصة أن أدرس في جامعة أيرلندية.. و بالرغم من هذا تركت هذه الفرصة وأكملت دراستي الجامعية في مصر.. أفأكون تاركة فرصة جيدة خلفي.. ؟".

و كنت ألعب في ورقة غلاف الأيس كريم الذي أنهيت أكله أختلس النظرات إلى أمي و أبي ثم عاودت:

" قالت لي إنه ليس موضوع فرص جيدة أو غير ذلك.. بل إنه موضوع ماذا أريد و ما الذي أنوي فعله؟.. ما الذي أود أن أدرسه و ما الذي أريده في حياتي؟.. و على أساس هذا الهدف أستطيع أن أحدد الفرص و الجيد منها و ما سيفيدني.. سألتني ما الذي أريد دراسته فقلت لها الصحافة أو الأدب.. باللغة العربية.. و ذكرت أيضًا أني أدرس اللغة العربية ضمن مواد الثانوية هنا.. فقالت لي إنه لدي فرصة أكبر في مصر لأدرس بمجالات كهذه..".

مما أحبطني بعض الشيء.. زارت ميس أوكونل مصر و عند هذه النقطة من حديثنا تكلمنا عن الفروق بين الحياة في مصر و الحياة في أيرلندا أصفهما بأنهما "كوكبان مختلفان".. لكني رجعت و حوّلت حديثنا إلى موضوعه الأول و سألتها..

"سألتها أيضًا إن كانت شهادتي الجامعية من أيرلندا ستعطيني فرص عمل جيدة في مصر.. و قالت إنه لا شك في هذا.. ستعطيني فرص عمل ممتازة هناك.. قالت أيضًا إن تكاليف التعليم الجامعي هنا ليست بالباهظة.. فهي تتضمن ثمن الكتب والالتحاق بالجامعة.. و المبيت إن أهلني مجموعي أن أدرس بدبلن أو جولواي أو كورك..".

و أذكر أني حينها صمتُ حياءً حـــتى ســـألتني معلمـــتي في النهاية:

"أتريدين البقاء في أيرلندا يا حنان؟".

و لم أعرف بماذا أجاوبها فقلت:

"لا أعرف.. أحب أيرلندا لكنها ليست..".

فقالت بعدما تركت لي مساحة كافية للتفكير:

"ليست بيتك..؟ ".

فقلت باستسلام من تعلم أن هذه ليست الكلمة التي كانت تبحث عنها:

"نعم، ليست بيتي..".

"ليست بيتك.. نعم، أفهم ما تقولين..".

و عاد عقلي إلى الغرفة التي جلست فيها عيـــون متـــسائلة ليسألني أبي:

"و ماذا تحسين أنتِ؟".

كأنه يستمع لكلام عقلي و خواطر قلبي.. نظرت إليه و لم أرد.. فعاود:

"أيهما تحسين أنه بيتك؟ مصر أم أيرلندا؟".

فأحسست باحمرار يبدأ من قلبي سيخترق جلــدي و يــدأ بالصعود حتى وجنتيّ و أجبت:

"لا أعرف.. أحس أن أيرلندا مكاني طبيعي.. أني تعــودت على الحياة هنا.. عندما أرجع إلى مصر أشــعر أن.. أن النــاس مختلفون.. في كل شيء..".

فقال أبي:

"هذا شيء طبيعي.. تصرفاتهم غير تصرفاتك..".

"لا .. لا أعني هذا.. لا أعني التصرفات و الشخــصيات.. أحس و كأنهم أجانب..".

اختنقت الدموع في حنجرتي.. فحاربتها خفية ثم عاودت:

"أعني أنه من المفترض أني مصرية.. و من المفترض أيــضًا أن هؤلاء الناس مصريون مثلي.. لا أستطيع استيعاب هذا الأمــر.. لسبب ما..".

كان ينظر إليّ الجميع و همّ أبي بالكلام لكن قبل أن يقــول أي شيء قلت:

"أنت لا تفهمني.. لا أعني التــصرفات.. لا أعــني شــيئا ملموسًا".

"بل أفهمك.. أنا أحيانا عندما أذهب إلى مصر يقال لي إني لست مصريًا تقليديًا..".

" لا أعرف.. أعني أنه عندما تدخل محلا ما هنا تعرف كيف سيقابلك الناس فيه.. تعرف ما الذي أمامك.. تعـــرف كيـــف ستتعامل معه.. لكن في مصر.. ".

و تبدأ أول دمعة صامتة بالنزول..

"في مصر لا تعرف من حولك.. تحس أنهم غربـــاء.. أنهـــم كبروا على غير ما كبرت عليه..".

حاولت أن أكف عن هذا البكاء المفاجئ لكن بلا جدوى، مازالت تنهمر الدموع في صمت و أقول:

"معظم تعاملاتنا في مصر هي.. داخل العائلة.. جميعنا يعرف بعضنا البعض.. لكن عندما يأتي الأمر لشخص خارج العائلة.. خارج هذه الدائرة من حياتي في مصر.. فكأنـــك لا تريـــد أن تقابله و تقلق من مقابلته.. لأنك لست تتخيل كيف ســـيكون هذا الإنسان.. و لأنك تخاف أن تكون أنت على شاكلة هو لم يعرفها و بشخصية هو لم يعتد عليها..".

و ساد صمت لكني رجعت وقلت:

"لا أعرف.. لا أشعر بشيء غريب في مـــصر.. لا أشـــعر بغربة.. فقط.. أنه.. أنك لا تعرف ما الـــذي يتوقعـــه النـــاس منك.. أو كيف هي حياتهم و أسلوب تعاملهم الذي يتوقعـــون

أن تستخدمه أنت أيضًا.. لا أعرف.. إحساس غبي على أية حال.."

وتوقفت عن الكلام أمسح الدموع من على وجهي.. ومكثت صامتة.. لتحوطني ذراع أبي و لا أنطق..

كنت أحاول أن أفهمهم ما أحس به.. و يبدو أني فشلت.. لكن ما أحس به في مصر هو أنه لا يوجد ألفة بيني و بين من أقابل.. أحب مصر.. أحب أهلي.. أحب ذكرياتي.. لكني أنظر للوجوه في الشارع.. في المحلات.. أحس أني لا أعرفها.. لا أعرفها ليس بالمعنى الملموس أو المنطقي.. بل لا أعرفها.. لم أتعود عليها، لا أعرف كيف يجب التعامل معها.. أحس أن الجميع سيرفضني لسبب ما.. أحس أنه بالرغم من حبي للنيل و لمصر و لشارعنا إلا أنه هناك هذا الشيء الغريب.. هذا الإحساس الذي يفصلنا..

و أحسست بفراغ بارد مهسهس يغتال قلبي.. تدوي كلمات عمتي رجاء في نفسي "عايزاكي تاكلي إيديكي و سنانك السنتين الجايين دولا عشان تجيبي مجموع عالي و تيجي تعيشي وسطينا".. تعيشي وسطينا..

و مر يوم بأكمله و أنا مجردة من الإحساس و الكلام.. و أريد أن أصرخ لكني أكتم آهاتي..

فإخفاء الألم يكون أفضل أحيانا من البوح بحيرة الانتماء التي توجع.. و تثير الخجل..

(١١)

الثلاثاء، ١٦ أكتوبر

غداً أول أيام شهر رمضان الكريم! كل عام و أنتِ بخير يـا أوراقي.. يا إلهي، لم يكف الهاتف عن الرن منذ انتشر الخـبر.. وها هي أمي تحادث والدة ضحى (السـودانية) الآن.. و لازال أبي يستقبل المعايدات و يرسلها.. و أخـتي تـستمع للأغـاني الرمضانية على القناة المصرية في التلفاز.. و لم أتوقف عن بعث رسائل لجميع أرقام المحمول التي أعرفها سواء داخل أيرلنـدا أو خارجها، و البيت كله مليء بالحياة و الحنين.. و الـسعادة.. أتريدين أن تعرفي كيف حال رمضان في هذا البلد الأيرلنـدي الهادئ أيتها الأوراق؟

إذن، سأحكي لك..

نفتح على القناة السعودية أولا، إذ إن فرق التوقيـت بيننـا وبينهم أكبر من فرق التوقيت بيننا و بين مصر أي أنهم يبدرون في رؤية الهلال بالنسبة إلينا.. وننتظر إعلان الرؤية، كمن ينتظر نتيجة امتحانه.. نغدوا و نروح على التلفاز.. و لأننا نمل بعـد القليل من الوقت فعادة ما نعرفها عندما ندخل الغرفة مرة أخرى بالصدفة.. و يبدأ الاحتفال..

"أمي! أمي! تعالي بسرعة! رمضان يبدأ غدًا في السعودية!".

"ماذا؟".

و تأتي أمي مهرولة من المطبخ في يدها طبق أو ملعقة و تبدأ بقراءة النبأ على شاشة التلفاز و نحن ننتظرها حتى تنتهي كـــأن هي من سيعلن بداية شهر رمضان..

"أين؟.. اليوم هو المتمم لشهر شعبان و غدًا إن شاء الله أول أيام شـــهر رمـــضان المبـــارك أعـــاده الله علـــيكم بـــاليمن والبركات...!!! كل عام و أنتم بخير.. و مصر؟ أين قناة مصر؟ تابعيها..".

و نتابع قناة مصر الفضائية.. و يا ويل من سيقلب بالريموت عن قناة مصر الفضائية.. حتى تبدأ مراسم الكشف عن الرؤيـــة ويظهر مذيع يقول لنا جميع أنواع المعايدات التي نعرفها و التي لا نعرفها..

و أقول لأمي في ضجر:

"لَمَ لا يقولون الرؤية رأسًا؟!!! أيجب أن نستمع لكل هـــذا الكلام؟!".

فترد:

"اهدأي يا حنان.. هذا هـــو نظـــام الاحتفـــال.. ثم أنهـــم سيقرؤون القرآن قبل الكشف عن الرؤية أيضًا .. بالمناسبة، هل صليتِ العصر؟".

كنت قد بدأت السهو عن الصلوات مؤخرًا.. أبطئ في أداء صلواتي.. لا أعرف، تسمي أمي هذا فتور في العبادة.. لكني كنت قد اعتدت على سماع الأذان في مصر (حجة ضعيفة يا حنان!).. المهم، قلت لها:

"نعم يا أمي.. صليت الظهر و العصر.. ما رأيك؟".

"رأيي أني آمل أن تكملي على هذا النحو دوماً .. ليس اليوم فقط".

"يا ربنا..".

و تنبهني أختي:

"حنان.. أنا التي ستطلب المركز الإسلامي في دبلن لنتأكد من بداية رمضان هنا.. كل عام تطلبيهم أنتِ".

"اطلبيهم.. لا مشكلة".

وأجلس أفكر في رمضان.. في متى و كيف ستتعايش معه في أيرلندا لأول مرة.. في اليوم الطويل جدًا الذي سنصومه هذا العام.. فهذه السنة سنصوم من السادسة صباحًا و حتى الثامنة مساء.. (عندما أتى رمضان بأواخر نوفمبر في أحد الأعوام كان الإفطار في الساعة الرابعة!) و لكن تقل مدة الصيام كل يوم إذ إننا نتجه نحو الشتاء.. وتمر الدقائق التي نحسها ساعات طوال..

حتى يظهر الشيخ علي جمعة مفتي الجمهورية ليكلمنا.. أستبشر خيرًا و اطمئن عندما أرى الشيخ على جمعة.. فوجهه صـــافٍ ومنير و يفعمني بالإيمان....

وننصت إليه.. ليعلن فضيلته أن أول أيام رمضان هو يـــوم غدا!

و نفرح جميعًا أشد الفرح لأنه غالبًا ما سيكون رمضان هنا في نفس اليوم الذي تبدأ فيه السعودية بالصيام و بما أن رمضان في مصر يبدأ غداً أيضًا فالأمر شبه مؤكد..

وننتظر أذان المغرب هنا.. بالطبع لا نسمع صوت المـــؤذن.. ولكن عندنا كتيب من المركز الإسلامي به مواعيد الـــصلوات لكل شهر في كل مدينة من مدن أيرلندا.. يكون معلقا في مكان يراه الجميع و نتفحص ميعاد الصلاة و ننظر للساعة بين الحـــين و الآخر و عندما تحين الصلاة نقوم لنصلي..

و يمر الوقت و ترحل الدقائق و يأتي أبي من عملـــه نكـــاد نتسابق كالأطفال في نقل البشرى إليه.. حتى يترل الليل يخـــيم على أيرلندا في صمتها الأخضر النديّ المعتاد و تتـــصل أختـــي بالمركز الإسلامي.. و كالعادة كل عام: رقمهم مشغول.. و مع ذلك نظل نحاول و نحاول حتى يرد علينا المركز برسالة مسجلة تقول إن أول أيام شهر رمضان هو يوم غد..

و من حينها و البيت كله خلية نحل..

آه يا أوراقي.. أعشق رمضان.. أحبه، فهو الذي يجمعنا نحن العرب سويًا أكثر من أي وقت آخر طوال العام.. أكثر ما أستمتع به في رمضان هو الوقت الذي تبعثني فيه أمي أو تبعث أختي نعطي من نعرفه من المسلمين أو العرب حولنا طبقا من "القطايف".. و يفتحوا لنا الباب..

"سلام عليكم".

"و عليكم السلام و رحمة الله.. إزيك يا حنان؟، اتفضلي".

"كل سنة و إنتم طيبين.. اتفضلي ده طبق قطايف عشان رمضان..".

"و إنتي طيبة.. شكرًا يا حبيبتي.. طب تعالي خشي من البرد".

من ذا الذي يهتم بالبرد في يوم كهذا؟.

"لأ خلاص مرة تانية بقى عشان ماما مستنياني".

"طيب خلاص.. سلميلي على ماما و على رنا.. مع السلامة"

"الله يسلمك.. باي باي".

و أذهب.. أذهب و لا أرى الخضار الأيرلندي من حولي.. لا ألحظ نباتات الشامروك المنتشرة في الأرجاء الخريفية.. ولا

أنظر للسماء الغائمة.. أذهب و لا أحـس بتحـديق أحـد في حجابي.. أو تحديق طفل قد سمع كلامنا العربي و دهش أشـد الدهشة.. كل ما أشعر به هو دفء يذكرني ببيـت جـدتي.. و بالمسجد الذي يقف أمامه و بالمسحراتي الذي لطالما سمعته يمر في شارعنا قبل أذان الفجر و بأصص الـزرع الـتي تـسكن "البلاكونة"، تلك التي أسقي نباتاتها مع أذان المغرب و كـأني أفطرها كما أفطر أنا..

و أصل البيت و لازالت حمرة الذكرى على وجنتيّ.

"أمي .. طنط نانسي تبعث إليك بالسلام.. هل أذهب لطنط ميساء الآن؟".

طنط ميساء هي والدة دانـة.. نتـذوق منـها الأكـلات العراقية.. قريبة إلى حد كبير من الأكل المصري.. و نتذوق من طنط فتحية الأكل الليبي و من طنط ميسون الأكل الفلـسطيني ومن طنط إقبال الأكل السوداني و من طـنط ماريـا الأكـل السوري.. و أحبهم جميعًا.. لا أشعر بفرق.. فـالروح هـي نفسها في كل من بيوتنا و مطابخنا.. روح عربية شرقية..

و رمضان في المدرسة هو وابل من الأسئلة "لِمَ لا تـأكلين؟" (و أحيانا:" لا تملكين ثمن الطعام؟")، "لماذا تصومين إذن؟"، "ألا تصابين بالجفاف؟"، "هل يصوم الصغار؟" ، "هل يجبرك والدك

على الصيام؟"، "ما الذي يحدث إن لم تصومي؟ هل تقتلين مثلا؟"، "و كيف لا تتضايقي و الجميع يأكل من حولك؟"، "هل تأكلين من وراء ظهر والديك؟" و الكثير الكثير.. و هناك من الفتيات من يتفهم هذا جدًا و يتعامل معه بمنتهى التلقائية.. تخيلي يا وريقاتي أن صديقاتي في مدرستي القديمة امتنعوا عن تناول الأكل أمامي أثناء الصيام؟!! خجلت منهم جدًا لكني فرحت بتصرفهم هذا كثيرًا.. أما المدرسات فلا يراعين الصيام إطلاقا (إن كن يعرفنه أصلا) و بالطبع لن تعطل المعلمة مسيرة التعليم بسبب فتاة أو اثنتين في الفصل..

أحياناً أنام فوق تلال الواجبات و المذاكرة و الامتحانات والأبحاث التي علينا.. و لا مفر، يجب أن أذاكر قبل الإفطار لأنه إن انتظرت لن أبدأ مذاكرة قبل التاسعة مساء، و هذا خطأ فادح! (بالنسبة لي على الأقل).. و يا له من يوم إن كان عليّ امتحان رياضيات أو تاريخ.. ففي الرياضيات أحس بدوار و أجري وراء تركيزي أتوسل إليه أن يكون قويًا و في التاريخ أفتح عينيّ قدر المستطاع لأحببهما في المواضيع و الدروس كما أحبها أنا.. و أقع في هذه الظروف المحزنة إن أتى رمضان في نهاية الصيف.. ففي الصيف النهار طويل جدًا هنا.. لكني في النهاية أحبه.. وأنتظره بفارغ الصبر كل عام..كيف لا؟ و هو يكاد يكون الشيء الوحيد الذي يجمعنا نحن العرب بروح إيمان

و مودة تصرخ بها قلوبنا عندما نتـــزاور ونتبـــادل المعايـــدات و الفطور؟ كيف لا؟ و هو يكاد يكون الشيء الوحيد الـــذي يوقفني في الصلاة بجانب دانة و والدتها وأختي و والدتي يؤمنـــا والدها أو أبي؟.. وهو يكاد يكون الشيء الوحيد الذي يطمئني و يؤكد لي مرارًا و تكرارًا أن لي مكانا أنتمـــي إليـــه، مكـــان أتذكره.. و أحن إليه.. و أني لست مجرد فتاة تقطعـــت بـــين حضارتين..

(١٢)

الخميس، ١٨ أكتوبر

أشعر أني أغرق وأذوب و أتلاشى في بحور من القطايف المقطرة بالشربات المعطر بجرعات مكثفة من السكر، و الكنافة المحشوة بالقشدة التي تكاد تسيح بين شعور الكنافة الذهبية، و الشوربة الساخنة التي تدخل أجوافنا الجافة الجائعة ساعة الإفطار فتلتهم نهمنا للطعام و ترضينا، و المسلسلات الرمضانية التي اكتسحت العالم التلفزيوني كغزو أقوام من النمل على حياتنا،وليل السحور الخافت التائه بين النوم و الاستيقاظ و الحائر بين الجوع و الشبع.. و صوت إمام المسجد الحرام في مكة الحبيبة يصلي التراويح في خشوع و حب لله جل و علا.. و كم أتمنى لو كنت أصلي وراءه .. آه يا ربي.. أنا مولودة في السعودية يا أوراقي.. تربيت في جدة و عرفت مكة وصفاءها منذ نعومة أظفاري.. نعم، منذ جئت إلى هذه الدنيا و أنا مغتربة.. لكن كل غربة و لها طعمها الخاص و حياتها.. و حلاوتها.. و جمال غربتي في السعودية أنها لم تكن غربة و بقدر ما أخذت مني أعطتني.. و أجمل ما أعطتني هي قربي من بيت الله الحرام.. وكم أني أعرف قيمة هذا الآن وأنا بعيدة عنه.. ترى ماذا أعطتني أيرلندا؟!! الكثير الكثير.. أنا عرفت

الدنيا هنا.. وخرجت من طفولتي هنـــا.. بالتأكيـــد علمـــتني الكثير.. و أثرت حياتي بعثات الخبرات و التجـــارب.. ألـــيس كذلك؟!

(أحياناً آمل لو أنك تستطيعين الإجابة على أسئلتي!)

هل استخدمت هذه الفرصة في أيرلندا بشكل صـــحيح ؟! مممممم .. يا له من سؤال..

كنت أريد أن أكتب إليكِ المزيد، أحس أني أريد أن أقـــول شيئا ما تائهًا مني.. لكن يبدو أنه ليس لي نصيب في ذلك فأمي تناديني، سأذهب لأرى ماذا تريد مني.. أراكِ لاحقا..

دمتِ بخير دائمًا..

(١٣)

الأحد، ٢١ أكتوبر

"ابعد عني و سيبني في حالي يا ديكلان"

دوت هذه الكلمات و لاتزال تـدوي في عقلـي.. دمـر أعصابي: ديكلان والش، مدرس البيـانو.. أتـردد إلى معهـد الموسيقى صباح كل سـبت لأتلقـى حصـصًا في البيـانو.. و أستاذي هو ديكلان والش.. و أكرهه.. لا بل لا أكرهـه.. إلهي، لا أعرف.. يا ديكلان، و لا أدعوه بـ "أسـتاذ" لأنـه صغير السن (و على أية حال لا يوجد هناك أية مناسبة لأناديـه فليس هناك سواه معي في الحصة).. إنسان مهـذب و مـرح وذكي وراق جدًا في تعامله مع الناس.. محبوب بـين تلاميـذه الآخرين.. و أنا لا أكرهه.. لكنه يـدمر أعـصابي في بعـض الأحيان.. في تمام الثانية عشرة إلا ثلث تتركني سيارة أبي أمـام معهد الموسيقى فأدخله و ألقي السلام علـى مـن جلـس في الاستقبال ثم أصعد السلم الخشبي القديم و أمر بجانب الغرفة رقم واحد.. و اثنان.. و ثلاثة.. ثم آتي عند غرفته الـصغيرة، رقـم أربعة.. أدق على الباب بهدوء و أدخل، فأجد نافذته مفتوحـة نفس الفتحة الرفيعة و هو جالس بدفتره و قلمه بـين يديـه..

بوجهه الأيرلندي ذي الملامح الحادة الصافية وقامته الطويلـــة، يضع الرجل على الرجل الأخرى.. و يبتسم لي..

فأسلم عليه و يسلم عليّ و يسألني بينما أضع كتابي علـــى سطح البيانو و أخرج بالنوتة:

"كيف حالك يا حنان؟".

فأرد عليه و قد تمكنت من العثور على النوتة:

"أنا بخير..". أجلس على كرسي البيانو الذي لا يبعد عـــن كرسيه سوى ببضع سنتيمترات.. عادة مـــا يبـــدأ ديكــــلان بالحديث عن أي شيء: الجو أو الدراسة أو مباراة ليمرك ضـــد كيري في الرجبي.. أي شيء.. لمدة دقيقة على الأكثر، يكـــون إما قد أضحكني وإما قد استطاع توظيف تركيزي.. بعد ذلك أبدأ أعزف له أول لحن، أحاول أن أبدع فيه قـــدر اســـتطاعتي و هو يحرك يده بالقلم على الورقة ليلفت انتباهي لشيء مـــا أو ينظر لأصابعي على البيانو.. أو ينظر لي و لجلـــستي و حركـــة أذرعي لأتذكر ملاحظته "انزعي ثقل ذراعيكِ عن يـــديك".. أنتهي و أنظر إليه، فيحني لي رأسه بالإيجاب في حدية و يقول: "هذا جيد.. تحسنت كثيرًا عن المرة الأخيرة.. لكن أريـــدكِ أن تحسي أكثر باللحن، الموسيقى ليست أصواتا فحسب، الموسيقى كلمات و مشاعر.. أريدك أن تشعري بها.. عيشي معهـــا يـــا

حنان، لاعبيها، اخترعي أغنية لها، افعلي أي شـــيء، حـــسي بالموسيقى.. إحساسكِ جيد لكني أريده أفضل من ذلك في المرة القادمة.. هذا شيء، الشيء الآخر هو الـــستاكاتو.. نوتـــات الستاكاتو ليست نوتات قصيرة فحسب، أريـــدك أن تقفـــزي عندها، قفزة هكذا..". لعب نوتة بحركة الستاكاتو على البيانو ولعبت بتأن من بعده "لا بأس، عاودي عـــزف اللحـــن الآن وحاولي التحسين من الستاكاتو، أريد أصابعك أن تقفز قفـــزة خفيفة عندها.. هيا..". و بدأت أعـــزف.. ليـــوقفني مكـــان الستاكتو.. تناول أصابعي، احتواها بين يده و أخذ يقود يـــدي مئات المرات في عزف الستاكاتو..

"نعم، هكذا..". و هنا أكره ديكلان.. كان يرفـــع يـــدي و يهبط بها برفق على البيانو.. كان بإمكانه أن يفعل هذا مرتين أو ثلاثة على الأكثر.. لكنه كان يمسك بيدي و أحسست أنها لم تعد ملكي.. تضايقت و خجلت منه جدًا و احمرت وجنتيّ.. و كان ينظر لي بطرف عينه بين الحين و الآخر.. و كرهتـــه.. لوهلة لم أذكر سوى الأستاذ أشرف.. أستاذ العلوم الذي كان يدرس لي في مصر.. كان دائمًا ما يجعل طابور الفتيات يـــصعد قبل طابور الأولاد إلى الفصل أو حتى خروجًا منه.. كان يعاملنا برقة و احترام و كان أبًا لكل واحدة منا.. أحسست بحنين إليه بينما مكثت يدي مع ديكلان، حتى تركها و انتقلنا إلى اللحـــن

التالي.. و لم تكن هذه هي المرة الأولى.. أحيانًا أشك إن كنت صديق ديكلان و أنا لا أعرف.. يقول لي "جيد جدًا! رائع!" ويضربني ضربة خفيفة على كتفي.. وكأننا نعرف بعضًا منذ الطفولة، و كأننا صديقان مقربان.. أو مثلا ما حدث بالأمس.. كنت عنده و كنت أحس ببعض الضيق.. كنت صامتة و ربما كنت لا أبتسم كعادتي.. و كان قد وبخني قليلا لأني لم أتمرن جيدًا على لحن ما، و قال "حنان، ركزي إذا سمحتِ، الموسيقى ليست بانج بانج على أصابع البيانو.. هيا انتقلي إلى اللحن التالي!".. فوصلت إلى قمة إحساسي بالضيق و الاختناق بكلماته تلك.. و عندما بدأت أعزف اللحن التالي تزاحمت الدموع في عينيّ.. لكني لم أسمح لها بالنزول على وجهي.. امتصتهم شراييني على الفور و جفت عيوني بسرعة.. لكنه بالتأكيد لاحظ.. بعدما انتهيت لم أنظر إليه، لكنه قال: "جيد جدًا..".

و صمت لوهلة ثم عاود: "حنان، ما بالك ميتة هكذا اليوم؟".

و قبل أن يُنهي حديثه التفت أصابعه حول معصم يدي و أخذ يحركها في الهواء فوق أصابع البيانو:

"هيا اعزفي يا حنان.. أريد أن أستمع إليكِ..".

و بدأ يجعلها تلامس البيانو لتخرج من الآلة العتيقة تلك نغمات على غير هدى.. ثم تركها و قال: "أعلم أنكِ عازفة بارعة.. اعزفي (أنغام قوم)، أريد أن أسمعها منك". فأذعنت لكلامه و عزفتها أعلم أني لا شيء بجانب إبداعه في عزفها و أعلم أنه أراد رفع معنوياتي فأفسدها و دق قلبي بعنف للمساته و أحسست أن كل شيء يضربني يومها..

"هذا رائع، دفترك الآن إذا سمحتِ..".

فأعطيته الدفتر أحرص خفية ألا تلمس يدي يده.. ديكلان لا يقصد أن يضايقني.. ما يفعله يفعله بتلقائية و بدون أي شيء غير لائق في نيته.. وقد يكون يفعله مع كل تلميذة أخرى لديه.. و قد لا تتضايق إحداهن.. لكني لا أستطيع أن أقول له "لا تلمسني يا ديكلان فتقاليدي لا تسمح لي بذلك".

لا أستطيع أن أفعل ذلك، ليس خوفاً منه أو قلة ثقة في نفسي.. لكني لا أملك القدرة.. أنا فتاة بعد كل شيء.. قد أكون قوية الإرادة و أدافع عن مبادئي و لكن عندي من الحياء ما يمنعني من أن أقول له ذلك.. مع أنه لن يغضب و سيأخذ الموضوع ببساطة، لعله حتى يدخل معي في نقاش حول ديني و تقاليدي و الحجاب.. لا أعرف.. حقاً لا أعرف.. أحيانا أرجع من عنده، أغلق على نفسي باب غرفتي و أبكي كالمجنونة

ولا أعرف علامَ أبكي.. هل لأنه أمسك بيدي؟ أم هـل لأنـه ذكرني بفتاة في مثل عمري تعيش في مصر و لا تتعرض لـشيء مما أتعرض إليه.. حقا لا أعرف.. ديكلان أستاذي بعـد كـل شيء.. و لكن لمساته تؤلم نفسي ألمًا مطموسًا لا أجد تفـسيرًا له.. و أحيانا أنظر إلى يدي، يهيئ لي أني أرى لمساته و أخاف أن تلمسها يدي الأخرى.. و كأن أصابع ديكـلان حفـرت لنفسها مكانا دائمًا لا مفر من وجوده على جلدي..

(١٤)

السبت، ٣ نوفمبر

"إيـــديا في جيـــوبي.. و قلـــبي طِـــرب..
ســارح في غربـــة.. بـــس مـــش مغتـــرب..
وحـــدي لكـــن ونـــسان.. و ماشـــي كـــده..
بأبتعـــد، معـــرفش.. أو بقتـــرب.."

كم أعشقك يا منير.. أنت بسمرتك النوبيـة، بلـهجتك الجميلة، بأغانيك الشجية تلك.. لولاك، لولا هذا الإحـساس المتدفق من ألحانك، وكأننا نسمع نبضات الـدم في شـرايينك تصرخ بصدق خالد.. تصرخ بحبك لمصر و تمدنا بـه دائمـا.. لولاك يا منير لا أعرف ماذا كان حل بي في غربتي العجيبة هذه.

كلمات صلاح جاهين على فكرة يا أوراقي.. يا إلهي، أكاد أكون كتبت قصيدة شعر في محمد منير.. و لكني أحبه، أحـب تلك الروح المصرية التي تشع من عينيه، مـن كلماتـه، مـن صوته.. يكون هو ملاذي عندما أكتب إليكِ و عندما تفـوح برودة الغربة من قلبي.. منير يزلزلني و يحيي روحي و شخـصي المصري مرة أخرى فأحس بالدفء و الأمان.. أحس أن كـل شيء سيكون على ما يرام.. على أية حال، ما هي آخر أخبارك

يا وريقاتي؟ لم أكتب إليكِ طيلة أسبوعين بأكملهما.. أوحشتني..و أوحشني ديكلان.. إن كان "أوحشني" هو اللفظ المناسب.. تركته، لم أعد أذهب إلى حصصه.. طلبت من أبي أن أغير مدرس البيانو، و عندما سألني عن السبب قلت له إن ديكلان عصبي جدًا و إني غير مرتاحة معه.. كذبت عليه، ربما للمرة الأولى في حياتي كلها.. و مازال ضميري يؤنبني بعض الشيء، لكن لم يكن لدي سبيل آخر.. و بالفعل سجلني أبي مع معلمة أخرى.. أتردد الآن على كاترين.. امرأة قد قاربت على أن تندرج تحت مسمى "العواجيز" و حصصها مملة جداً و لا أحس أن لديها نفس الاهتمام بأدائي كما كان ديكلان.. و كأن العمر و التكرار قد أرهقها و جعل منها إنسانا تقليدية لا أمل في تغيير نظرتها للحياة.. ما في عقلها سيظل في عقلها إلى الأبد.. رباه.. هل تراني هكذا أيضًا؟ لأني تركت ديكلان؟ لا.. لا يمكن أن أكون مثلها.. أنا لست متزمتة.. ربما فقط أتأثر جدًا بكل ما هو حولي؟ حساسية سن المراهقة تلك؟ لا أعرف.. أنا متأكدة أني لم أكن في أروع حالاتي النفسية مع ديكلان.. لم أكن أشعر بمنتهى الراحة صباح يوم السبت و أنا ذاهبة إليه.. ولا و أنا أتدرب على الواجبات التي كان يعطيني إياها.. كان هناك شيء ما غير صحيح.. مثل قطعة الأحجية المفقودة.. السبت الماضي كانت عندي حصة موسيقى نظرية

قبل الدرس مع كاترين.. كنت أقف مع بقية زملائي يخيم علينا صمت كسلنا الصباحي، ننتظر المعلمة (التي تأخرت كالعـــادة وهي الوحيدة التي معها مفتاح الفصل).. كان صباح طبيعـــي وكان كل شيء على ما يرام.. كان كل شيء على مـــا يـــرام حتى مر ديكلان من أمامي.. كان يتجه نحو غرفته.. رأيتـــه.. وكم تمنيت لحظتها أن تنشق الأرض و تبتلعني (إذ إني لم أخبره أني سأتردد إلى مدرس آخر، تولى أبي جميع المهام بالنيابة عـــني) وللحظة أحسست أن عيون العالم كلـــه تحـــدق بجـــرأة فيّ.. مر من أمامي في حركته الثابتة الهادئة دون أن ينظر إليّ، لكنـــه همس لي بنبرة عتاب:

"كيف حالك؟".

و لا أعرف من أين خرج الصوت الذي رد عليه قائلا:

"بخير..".

ما هي إلا ثوان.. اضطربت فيهـــا جـــدًا.. أحســـست أني مشوشة.. أحسست بمئات الأفكار المتخبطة في عقلي.. في عينيه فسلوكي غريب ولا تفسير له.. و في عينيّ فأنا أغلقت بابًا يطل على طريق لا أعرف كيف يجب عليّ أن أمشي فيه و لا أعرف ما هي نهايته.. ديكلان.. كم أتمنى لو كان باستطاعي أن أشكره على حب الموسيقى الذي زرعه فيّ و علمني إياه..ولكن مهمـــا

كانت الذكرى المرتبطة بهذا الشخص.. مهما كان ما فعلتـــه.. حتى إن كنت قد أخطأت بعدم التأقلم و حل المشكلة بـــشكل أكثر إيجابية و سلاسة.. حتى لو أي شيء يا أوراقي.. ديكـــلان صفحة في حياتي.. طويتها.. و أرجـــو أن تكـــون انتـــهت.. (مش عايزة أفتحها تاني... يمكن كره.. يمكن ندم.. يمكن حيرة و خجل..).

(١٥)

السبت، ١٠ نوفمبر

(أسبوع آخر مر دون الكتابة إليكِ.. آسفة..).

فكرة مجنونة سيطرت عليّ هذا الصباح..

استيقظت صباح اليوم (الأحد) و لا تدور في عقلي سوى كلمتين "فيس بوك".. (facebook) أحسست بطاقة غريبة، بجنون و قلق و جرأة.. و عزمت على أن أفعل ما دار بخاطري ليلة أمس بلا أي تفكير أو تردد.. قمت من سريري و غسلت وجهي بماء بارد كالثلج (خوفا على بشرتي من التشقق.. و لا أعرف من أين أتيت بهذه المعلومة) و توضأت و صليت ركعتي الصبح.. فتحت ستائر غرفتي فوجدت جيراننا الأيرلنديين ينظفون حديقتهم و يجمعون زجاجات الخمر التي ملأت المكان من بعد حفلة طالت حتى آخر الليل مما ذكرني بالضحك والموسيقى الذين سمعتهما عندما صحوت من نومي قلقا في الليل.. و ذكرت ليلة كنت فيها بنت العشرة أعوام و صحوت من النوم على صوت شباب سكارى يكسرون زجاجات خمر ويضحكون و يغنون على غير هدى تحت نافذة غرفتي.. و كم أني أحسست بالرعب حينها.. ورجعت أغلقت الستائر مرة

أخرى.. كان أبي مناوباً في المستشفى فقد كـــان دوره هـــذا السبت بتولي العمليات.. أكلت فطوري صامتة (فقـــد انتـــهى رمضان و مر العيد مرور الكرام فكنا في المدرســـة و كـــان أبي يعمل) وذهبت أمي مع أختي لشراء بعض مستلزمات البيت من مركز التسوق الذي كان بجانب بيتنا و قالت لي و هي علـــى الباب:

"لا تنسِ أن تضعي أطباق الفطور في غسالة الـــصحون يـــا حنان..".

فتنهدت أسفا و قلت:

"حاضر.. لن أنسى.. لكن لا تتأخري".

"لن أتأخر.. مع السلامة.. و أغلقي الباب بالمفتاح".

"سأفعل.. باي باي".

"تعالي أغلقيه الآن..".

تمتمت:

"يا إلهي".

و قمت وراءها إلى الباب آتي بالمفتاح و أقول:

"إلى اللقاء". أغلقته بإحكام كما طلبت و دخلـــت المطـــبخ لأضع الأطباق في الغسالة.. لكن اتضح لي أن هذا الأمر يتطلب

أن أفرغ ما في الغسالة من أطباق نظيفة.. فضحكت و بـــدأت أعمل في نشاط أغسل بالماء أطباق بها بقايا فول مدمس و بيض مقلي و جبن أبيض أغني كلمات محمد منير "نعناع الجنينـــة" لا أعرف لماذا انتقيتها.. أنهيت ما أرادته أمي في عشر دقائق و من ثم اتجهت إلى الكمبيوتر في غرفة الدراسة الهادئة و جلست أمامه على الكرسي البلاستيكي الأبيض أضغط على زر البدء و أفك شعري أعيد تنسيقه.. و غمزت لنفســي في المــرآة ورائــي! اشتركت في الفيس بوك منذ بضعة أيام و يوم أمس دخلت على إحدى ساحات الحوار المصرية فيه و وجدت أن الجميع يناقش ما يريد.. فقررت قرار مفاجئ أن أناقش أنا أيضًا مــا أريـــد.. دخلت على الموقع و سجلت اسمي و كلمة المرور و انطلقـــت حتى وصلت إلى ساحة الحوار تلك.. و قبل أن أبدأ بفعـــل أي شيء صدمتني صورة لفتاة مصرية مشتركة هـــي الأخـــرى في الفيس بوك.. تقوم بإعلان ما.. صُعقت، فلم أكــن أتخيـــل أن هناك فتيات في مصر بمثل هذه العقلية التي تثير الاشمئزاز.. هـــل كانت تظن أن هذه هي الحرية؟ أو أنها هكذا تقلد من في الغرب مثلا؟ نظرت لصورتي المستعارة التي مثلـــت "ميكـــي مـــاوس" فابتسمت و نزلت بسرعة أتصفح الساحة لأخفي صورة الفتـــاة تلك و وجدت الرابط الذي يسمح لي بإضافة موضوع جديد فضغطت عليه و ظهرت لي صفحة جديدة بهـــا العديـــد مـــن

الخانات و في خانة عنوان الموضوع كتبت "إيه نظرتك للبنت اللي اتربت بره بلدها؟" و ملأت بقية الخانات و اعتمدت الموضوع.. و من ثم قمت و ذهبت مرة أخرى إلى المطبخ يذهب عقلي و يجيء عما أفعل و سكبت لنفسي كوبًا من عصير البرتقال و رجعت مرة أخرى إلى الكمبيوتر أشغل أغنية فرانك سيناترا

I did it my way

أؤكد لنفسي أني "دقة قديمة" أحيانا..

و على الفيس بوك وجدت ثلاثة ردود من ثلاثة صبيان..

"بتصعب عليا لأنها هتشوف أيام سودة".

دهشت و كدت أضحك..

"حرية زيادة عن اللزوم".

قطبت جبيني..

"من واقع خبرة.. ماعندهمش أخلاق".شربت من عصيري و أحسست ببعض الضيق.. قمت بالرد على الأول "ليه؟".. وعلى الثاني "بس أكيد الأهل ربوا بنتهم على الطريقة العربية و الإسلامية، مش ضروري يفشلوا" و على الثالث الذي استفزني "بس مينفعش نعمم".. و تطور الحوار و تحدثنا كثيرًا يشارك العديد من الناس و الغريب أن جميعهم بلا أي استثناء

كانوا صبيانا.. مما أقلقني لأني أحسست أني الفتاة الوحيدة وسط أفواج الشباب تلك و أنه ربما قد لا يليق بي ما أفعل لكني لم أتوقف و حاورت الجميع داخل نطاق الموضوع.. فقد كنت أريد أن أمهد لنفسي ما سأراه في الجامعة عندما أعود لمصر.. .كنت أريد أن أتعرف على أسلوب تفكيرهم و نظرتهم لنا.. نظرتهم لي.. رد عليّ أولهم قائلاً "لأنها غالبًا بتكون مخها نظيف و مايستحملش إللي هتشوفه في مصر" فضحكت هذه المرة لكني اعترضت على ما قال "أكيد هتلاقي اختلاف في أسلوب الحياة و التفكير.. لكن بالرغم من إنه المصريين دلوقتي عندهم إهمال كبير في حاجات كتير إلا إنه في مواهب و قدرات رائعة.. المصريين بس مبقاش عندهم عزيمة و إمكانيات كافية لاستخدامها".

و قال لي المشترك المستفز: "إن شاء الله... بس لسه معرفتش واحدة كويسة اتربت بره"؟

أحسست بكم غريب من الغضب يجتاحني... "على كده المغتربات إللي راجعين مصر كتير.. بس مش يمكن هي بتعمل كده عشان حاسة إنه مفيش حد مرحب بيها لمجرد إنها جاية من بره؟". فرد عليّ:

"و هي إيه إللي يرجعها مصر أصلا؟". توقفت عن الكتابة فجأة أحس بالغرفة التي جلست فيها.. المعدة أفضل و أحدث

إعداد و مفروشة من أجمل الفرش و الديكور.. و قارنتها ببيت جدتي البسيط المفعم بروح الشرق و دفئه و عاودت أقول له: "إنتَ عمرك اتغربت؟ ناس كتير قالت إنه الواحد هيتعود على الغربة و إنه التعليم الكويس و مستوى المعيشة العالي أهم.. و ناس تانية قالت إنه الإحساس بالأمان أهم من الماديات.. متهيألي دي حاجة نسبية.. ؟؟؟".

و جاءني رد جديد: "بره إللي بيربي الدولة.. و دي طبعًا دولة أوروبية، يعني مفيش سمعان كلام بابا المسلم ولا ماما المصرية".و شربت من العصير أحس بشيء غريب.. حتى لحظتي تلك لم يقف أحد في صف الفتاة المغتربة.. كلهم قالوا أشياء مثل "بنت متحررة متعرفش العيب" و "هو حرام البنت تتربى على الحرية؟".. و المشكلة ما هو مفهوم الحرية عنده.. و بدأت ترتسم لي صورة مستقبلية لحياتي في مصر: رفض، سخرية، استغلال، وحدة.. و في نور الشمس و البرودة التي تنبعث من أثاث الغرفة حولي أحسست أني أذوب و أضعف بين قوائم الكرسي الذي جلست عليه.. قمت لأشعل نور الغرفة فوجدت أن السماء بدأت تمطر بغزارة في الخارج فأشعلت المدفأة أيضاً.. و كان هذا أفضل بكثير.. عدت أمام الكمبيوتر أستقبل المزيد من التعليقات، استغربت جدًا أن أحدًا لم يذكر شيئا عن العنصرية.. أو عن الصعوبات التي تواجهها الفتيات في الخارج..

جميعهم تحدثوا عن تأثير البنات الغربيات و المجتمع على المغتربة و أحسست أن أية فتاة مكاني بالنسبة إليهم فتاة منفلتة لا انتماء أو احترام لها.. حتى رد عليّ أحدهم قائلا:

"مش مهم.. المهم تصرفاتها و احترامها للمجتمع بتاعها".

و بصراحة أثلج صدري و لم أقل له سوى:

"صح، عندك حق".

و قال أحد من بعده: "الموضوع يتوقف على البنت نفسها.. المفروض إنه تكون نظرة المجتمع لأي إنسان على قدر عمله و تصرفاته و مدى إيجابيته للظروف المحيطة بيه".

و عاود الأول:"خدي الأمور بالراحة.. مش كل المصريين رافضين فكرة البنت المغتربة.. الأهم إنك تكوني واثقة من نفسك".

ارتحت بعض الشيء.. و من بعد ذلك قلت أعداد من يشارك في الموضوع.. و لم يقل أحدهم شيئا يذكر سوى "بنت عادية شايفة الحياة من غير ذوق" فابتسمت.. فتاة جادة عملية.. جيد.. و أنهيت العصير أفكر في كل ما قيل لي و أعيد قراءته.. لأصل في نهاية لاستنتاج واحد.. الناس في مصر كسائر الناس في العالم.. تختلف عقولهم و شخصياتهم و الأهم هو شخصيتي و استيعابي.. ممم.. أحسست أني سأكون على ما يرام

يا أوراقي العزيزة.. و لم ألبث بأن أستمتع ببعض الوقت حتى تذكرت أني في الثانوي العام و عليّ واجب تاريخ للمستوى الرفيع.. عليّ أن أكتب موضوعًا عن صعود تشارلز بارنل إلى السلطة السياسية في أواخر القرن التاسع عشر..

و قلت أغلق الكمبيوتر:" ما إنتي راجعة راجعة، قومي ذاكري دلوقتي يا حنان.. للخواجة بارنل يزعل منك..".

(١٦)

الثلاثاء، ١٣ نوفمبر

"حنان مصطفى".

"هنا".

هكذا تنادي عليّ ميس أونيل في كشف الحضور و الغياب، فهي المدرسة الوحيدة التي تناديني باسمي و اسم والدي.. أكون سعيدة جدًا بهذا الأمر، لأنه في العادة عندما تنادي أية معلمة أخرى على الحضور و الغياب تقول جميع الأسماء الأيرلندية كاملة ماعدا اسمي "جيد بيتون.. تراسي هاكيت.. ليسا ماكنمارا.. حنان.. لورا أوليري.." أما ميس أونيل فتنادي عليّ باسمي الكامل "حنان مصطفى" و هو أحلى ما تفعله.. في أول مرة حدث هذا الأمر استغربت جميع الفتيات و نظروا إليّ.. بل ربما نظروا إلى هذه المدرسة الذكية التي استطاعت نطق اسم حنان الثاني و حفظه! ففي العادة لا يهتم أحد.. و لذلك أشعر بقيمة أكبر في حصة الأحياء.. فبالرغم من صغر فعلة ميس أونيل إلا أنها تعني لي الكثير.. تعني أني لست أقل ممن ينده عليهن بأسمائهن الكاملة و أني لست على الهامش حتى لا يهتم أحد بنطق اسمي الثاني.. و تعني أنها لا تفرق بين تلميذاتها..

هذا ما ذكرته عندما كنت جالسة أدرس على مكتبي و سمعت دقات أجراس الكنيسة التي تبعد عنا ببضعة شوارع.. قالت لي نفسي إنه قد تكون ميس أونيل في الكنيسة الآن و تمنيت لها صلاة مقبولة و أن تعم الطمأنينة نفسها.. هي و دون و جين.. مما أراحني بشكل غريب.. لأني تذكرت الأذان.. كيف أن أذان الفجر هو أول ما استقبلني عندما وصلت إلي بيت جدتي من المطار الصيف الماضي و كيف أني نمت على صوته و صفت نفسي و كأني أولد من جديد.. و بالرغم من أن ميس أونيل لا تنتمي إلى هذه الذكرى إلا أنها أوجدتها.. بالسلام الذي أشعر أنه يغني في عينيها.. قد نكون مختلفتين.. قد تنتمي كل واحدة منا إلى مكان آخر و طبيعة مختلفة.. لكننا في النهاية إنسان.. بشر.. و ما أنقى و أرقى هذا الإحساس يا ربي..

بالأمس:

وقفت ناتاليا أمامي و في يدها "الآي بود" و كانت الموسيقى ترن بأعلى صوت حتى أني أشفقت على السماعات أكثر مما أشفقت على أذنيها.. و سألتها:

"أتحبين الموسيقى؟".

"لا أستطيع أن أعيش بدونها..".

"و أنا أيضًا.. لا يمر عليّ يوم بدون أن أستمع للموسيقى..".

سكتنا.. و لكنها كانت تقف أمامي في شكل مائل غريب، كأننا كنا نتحدث منذ ساعات و ساعات.. أغلقت "الآي بود".. و بعد أن أحسستها تمعن في التفكير قالت:

"أتعلمين؟ هناك شاب مسلم يعمل معي..".

مسلم يعمل في خمارة! لكن ليس هذا أول ما جذب انتباهي:

"حقاً؟!! ما اسمه؟".

"اسم طويل صعب، ندعوه محمد على أية حال..".

"محمد.. نعم..".

"يبلغ حوالي السادسة و العشرين أو السابعة و العشرين من عمره..".

"ممم..".

" لقد قال لي إنه لم ير زوجته قط قبل أن يتزوجها".

صدمت، صمتُ، و جعلتها تكمل:

"قال أيضًا إنه تزوج عندما كان في التاسعة عشرة من عمره و كانت هي في السابعة عشرة".

"ما جنسيته؟".

"لا أعرف.. بلد صعب نطق اسمها..".

"باكستان؟".

"ما عاصمتها؟".

"إسلام آباد.. كراتشي.. لا؟ .. إذن الجزائر ربما؟.. مصر؟ القاهرة؟ .. العراق؟ بغداد؟ ..".

"لا .. لا أظن.. المهم، قال لنا إنه غير مسموح لزوجتـــه أن تخرج بمفردها للشارع و ليس مسموحًا لها علـــى الإطـــلاق أن تعمل.. بل إنهم حتى لا يستطيعون الطلاق مهما حدث..".

"أمر غريب..".

نظرت إليّ في تساؤل و حيرة فقلت:

"أعني أنه في العادة ديننا أو مجتمعنا لا يسير على هذا النحو.. لكن هناك بعض المتطرفين..".

"رباه.. لقد صدمت حقا.. لم أستطع استيعاب ما قـــال.. أهناك من مازال يعيش بهذه الطريقة؟".

"هناك متطرفون في كل مجتمع..".

"أعني أنه.. هيا.. نحن في القرن الواحد و العشرين.. لطالمـــا ظننت أن هذه الأشياء تاريخية، من عهد قديم قد زال..".

قلت بيني و بين نفسي:

"ارحمني يا رب يا إللي بترحم.. أقولها إيه دي بس؟".

و أكملت:

"و تعرفين ماذا أيضًا؟".

"ماذا؟".

"لقد خطب له أبوه!! يا إلهي، أتصدقي؟".

"لِمَ لا أصدق؟ ما العيب في ذلك؟ زواج عن طريق العائلة..".

هزت رأسها سلبًا كعادتها و قالت:

"بل إنه أمر لا يصدق.. استغربت جدًا..".

نظرت إليها بعمق أكثر وقلت:

"يجب أن أقول إني أيضًا استغربت جدًا يا ناتاليا..".

حدقت فيّ ثم قالت:

"عندكم يتحكم الرجل في المرأة.. أليس كذلك؟".

"ماذا تعنين؟".

"أعني أنه يرغمها على فعل أي شيء.. مثلا إن قال لك والدك أن تفعلي شيئا و لكنك لم تكوني تريدين فعله.. فلا خيار أمامك".

" طاعة الوالدين مهمة في الإسلام.. و لكن إن كنت تتحدثين عن أشياء مصيرية كالزواج مثلا.. فليس من صلاحيات الأب أن يجبر ابنته على الزواج من شخص ما..".

"مطلقا؟".

"مطلقا.. إن جاء أحد ليخطبني مثلا (في المستقبل البعيد) و لم أوافق عليه لكن أبي صمم على زواجي منه و غُصب عليّ الزواج من هذا الرجل يقع اللوم أو الذنب على أبي لأنه أجبرني و ليس عليّ لأني لم أوافق..".

"لدى المرأة إذن حق اختيار زوجها؟".

"نعم..".

"لكن مازال لدى هذا الزوج الحق أن يفعل بالمرأة ما يشاء.. يقول لها أن تفعل هذا أو لا تفعله أو يمنعها من أي شيء.. فتكون تحت رحمته..".

بدأت أشعر بلمسة غضب في داخلي و قلت في نفسي:

"مين إللي مش فاهم حاجة في حياته و مش مركز نهائي إللي مفهمك كده؟".

جاوبتها:

"لا ، ما تقوليه غير صحيح.. العلاقة الزوجية في الإسلام يتشارك فيها الرجل والمرأة.. و هي علاقة مودة و رحمة.. ثم إن

الإسلام أعطى للمرأة حقوقا كثيرة جدًا.. بل تكاد تكون المرأة المسلمة أكثر نساء العالم تمتعاً بحرية و حقوق.. على عكس ما يعتقد الجميع.. فالمرأة في الإسلام لها حق التعليم، لها حق العمل، لها حق الميراث، لها الحق أن تخطب لنفسها أو لا تتزوج على الإطلاق.. الأم في الإسلام مكانتها عالية جدًا جدًا.. و المرأة المسلمة لها كيانها الخاص و شخصيتها المستقلة و لم يفرق الإسلام بين الرجل و المرأة في العلم و التدريس والوظائف و إدارة شؤون الدولة.. و الثواب و العقاب.. و الحجاب الذي أرتديه.. هذا لا يقلل من شأني، بل يرفع منه..".

فحدقت فيّ و كأنها ستستهزأ قائلة:

"كيف؟".

"لأني بحجابي هذا أغطي جسدي.. و كأني أقول أنا أحترم ذاتي كامرأة لها عقلها و مشاعرها و مبادؤها و مستقبلها.. و أنا لست جسدًا فقط .. فخلف مفاتن جسدي هناك شيء أعمق من هذا.. و بالتالي فالحجاب يظهر هذا المعنى الأعمق للمرأة، يظهر شخصيتي.. يحفظ جسدها من نظرات الجميع و في نفس الوقت يبرز الجانب الأرقى منها.. تفكيرها و إنسانيتها..".

"لكن نحن لا نجري عرايا في الشوارع يا حنان".

"و أنا لم أقل هذا يا ناتاليا.. و لا أتهم أحدًا.. أنا أشرح فكرة الحجاب..".

نظرت بعيداً عني و قلت:

"على أية حال.. يجب أن أذهب كي آتي بكـتبي للحـصة التالية.. ماذا لدينا بعد الفسحة؟".

"لدينا رياضيات."

"يا الهي.. رياضيات، أكره الهندسة التحليلية هذه..".

فردت بإيماءة و ابتسمت لها قائلة:

"إلى اللقاء".

اتجهت نحو دولابي الصغير، أفتحه بمفتاح علقته في ميداليـة رُسمت عليها الأهرامات و أبو الهول.. نفـس الميداليـة الـتي استعملتها العام الماضي، و العام الذي قبله.. لكن هـذه المـرة نظرت إليها بعيون جديدة.. و بدأت أنتقي كتبي لأفاجأ بصوت من خلفي:

"حنان!!".

"بسم الله الرحمن الرحيم.. مين! رعبتيني..".

"عرفت إنك هون..".

"هههههه.. و هو يعني أنا بيقى فين غير هون؟! .. رجعـت ردت عليكو المدرسة إللي اشتكتوها عشان البنـت الأيرلنديـة اياها إللي وقعت مريم؟".

"لاء.. بس كأني شفت هي شارلين عند مكتب المديرة..".

"طب أحسن.. والله مريم دي أنا معجبة بيها..".

"ايش قصدك يعني؟!!".

"لأ مش قصدي.. ما هي أكيد طالعة لأختها!!.. أنا أقصد إنه دايمًا الأجنبية ممكن تحس إنها قليلة و يتعمل فيها أي حاجة، لكن لما تقف قدام إللي بيضطهدها و تعترض بتثبت نفسها في المدرسة..".

"عندك حق.. بيفكروا حالهم ممكن يطلعوا خلقهم علينا و رح نسكت..... حنان؟ أمانة الله تيجي معي عالحمام، لأنه في بنات بأخاف منهم..".

"لا حول ولا قوة إلا بالله.. قال الحكي إلك يا جارة، هههههه".

"ههههههه .. والله صرتي تعرفي أمثالنا كمان.. بس عن جد يا حنان، بخاف..".

وضعت الكتب في حقيبتي أغلق الدولاب و واجهت مني:

"آه يا ربي.. فاضل ست شهور و أنزل مصر".

"نيالك..".

الليلة (حول مائدة العشاء- فأبي تأخر جدًا في عودته إلي المترل، و أصبح غداؤنا عشاءً !):

كنا نأكل فتة مصرية بالصلصلة و قطع اللحم.. و أثارت رائحتها إحساسًا جعلني أرجع إلى بيت جدتي و مائدته الذي

اجتمع عليها خالي و خالاتي و أولادهم معنـــا لنأكـــل نفـــس الأكلة.. و جدتي تعطي لكل منا نصيبه و تحكي حكايـــات و تستمع لحكاياتنا، تكلم كل من أولادها بصوت ممتلئ بالحكمة و الاهتمام.. و تداعب بحنان عذب كل مـــن أحفادهـــا.. مـــن أصغرهم ذي العدة أشهر إلى أكبرهم ذات الخمسة عشر عامًا..

قطع أبي الذكرى يبلغنا بالخبر الذي غـــير مـــسار العـــشاء ليلتها:

"جاءتني مكالمة اليوم من السفارة المصرية".

و قلت قبل الجميع:

"حقاً؟ أهو من أجل التقدم على الجنسية الأيرلندية؟".

و قالت أمي:

"نعم.. أهو من أجل ذلك؟".

"لا ليس من أجل ذلك.. حنان، الجنـــسية لا علاقـــة لهـــا بالسفارة..".

فقلت له بنبرة بها شيء من عدم الاهتمام:

"إذن ماذا؟".

"لن أقول حتى تأتي رنا..".

"يا إلهي .. رنا.. إذن فالموضوع هام..".

و قالت أمي:

"هام جدًا..... ها قد أتت رنا".

جلست رنا تنهي تمشيط شعرها و تقول:

"ماذا ؟".

و قلت لها:

"بابا لا يريد أن يقول لماذا اتصلوا به حتى تأتي أنت".

قالت:

"و ما الذي يزعجك؟".

لم أرد عليها و قال أبي:

"طلبني شخص يقول: إنت مصطفى عبد العزيز بتاع العضم؟".

و ضحكنا جميعاً.. فأبي جراح عظام:

كدت أقول:

"المصري مصري.. حتى و إن سافر إلى القطب الجنوبي..".

لكني عدلت عن الفكرة و عاود أبي:

"المهم، قال لي إنه يريد بياناتنا لأنهم يجمعون كل بيانات الجالية المصرية في أيرلندا.. بحيث إن كان هناك أي تجمع للجالية المصرية أو احتفال يستطيعون الاتصال بنا..".

و انتفضت أساريرنا فرحًا لتكون أولنا أختي:

"متى؟ متى! .. متى الحفل يا أبي؟!!".

و ردت أمي:

" لم يحددوا بعد.. لكن يا إلهي كم سيكون جميلا إن نظموا تجمعًا بهذا الشكل..".

و وافقتها:

"نعم.. أتمنى أن أذهب لحفل به كل المصريين هنا..".

و جلسنا نتكلم عن هذا الحفل المستقبلي و عن نوادرنا في السفارة المصرية (و يا لها من قصص!) ليغني أبي في النهاية:

"المصريين أهما.. حيوية و عزم و همة!".

و كان يشير إليّ أنا و أختي و أكمل غناءه و مكثت أضحك، أقول في نفسي: "نعم.. أصبت هذه المرة يا أبي".

(١٧)

السبت، ١٧ نوفمبر

كنت خارجة من المدرسة يوم أمس باتجاه سيارة أمي في نهاية الشارع و كان قد سبقتني إليها رنا و دانة.. خرجت من باب مبنى المدرسة الرئيسي و لمحت ثلاثة أولاد واقفين عند البوابة، اثنان منهم بجانب الباب الأخضر الحديدي و آخر يبعد عنهم واقف تحت شجرة من أشجار البيوت التي صُفت على جانبي هذا الشارع الصغير.. خفت بعض الشيء فكلما رآني ولد ما يحلق فيّ و كأنه يرى كائن لم يره من قبل، بل يحلق في حتى أحس أني سجينة نظراته المقلقة.. التي لا أفهمها أبدًا.. لكن ما أن ألمحها حتى أجدها نظرات بها بعض الطفولة و اللا منطق.. بعض البلاهة..

و كالعادة مررت بجانبهم لا أنظر إليهم مطلقا.. و قلت في نفسي:

"تلاقيه مستني حد من البنات.. مستني حبيبته.. يا نهار على دول بنات.. هه، كويس إني خرجت قبل بداية المشهد الرومانسي".

و قبل أن أحس بذلك الإحساس الغامض الحلو يلامس قلبي نهرت نفسي لما روادها من أفكار و كلمات..

أما الاثنان فقد توقف أحد منهم عن الكلام و أحسسته ينظر إليّ بشدة حتى بعدما أكملت سيري.. لوح رقبته.. و كانت تهتز من الضحك (عجيب كيف لا يستطيع الأولاد السيطرة على انفعالاتهم، فقد أحسست به بالرغم من أني كنت أعطيه ظهري).. أما الثالث فكان أجرأ منهم جميعًا، مررت بجانبه لا ألتفت إليه و لا أحني رأسي إلى الأرض لكنه اقترب خطوة مني و قال في صوت ليس بعال و ليس بمنخفض.. بصوت مناسب جدًا لأسمعه أنا فقط..

"أيتها المتخلفة".

فاتسعت عيناي و لم أتوقف عن المشي.. أمضي خطوة.. ثم خطوتين.. لا أستوعب، لا أفهم.. أتجاهل العالم من حولي.. و أعيد كلمته في عقلي "متخلفة".. توالت صور مدرستي ثم مصر ثم أهلي ثم أيرلندا ثم شهادة تقدير ثم منى ثم دانة ثم أبي و أمي.. كلهم كالبرق الخاطف أمام عيني.. و ما هي إلا ثوان و أحسست أني أفيق من الصدمة.. أحسست بغضب يجري يغلي يوقظ الدم في شراييني و فتحت فمي ثم أغلقته ثم تمتمت:

"ربنا ي...".

و لم أكمل فقد دعاني شيء ما بداخلي أن أقف مكاني.. فوقفت أقبض يدي بكل ما أوتيت من قوة حول الكتابين الذين أمسكت بهم و استدرت لأواجهه..

لكنه كان يعطيني ظهره ينتظر باهتمام و شـــوق إحـــدى فتيات المدرسة..

أحسست بانكسار.. أحسست بقلبي يتلاشـــى في تلاطـــم أمواج بحر واسع عنيف و قاس.. تنهدت..

"آه يا ربي.."

ماذا كنت سأفعل إن كان واجهني على أية حال؟ و مضيت إلى السيارة..

"كيف حالك يا ماما؟".

"كيف حالك يا حنان؟".

"الحمد لله..".

"كيف كان يومك؟".

"يوم طبيعي.. أحس أني تحت حكم بالأشغال الشاقة..".

ذهبت مع منى إلى المكتبة العامة اليوم.. أوصلتنا أمي و قلنـــا لها إننا سنرجع مشيا على أرجلنا.. ســـجلت مـــنى في المكتبـــة و استعارت بعض الكتب و اســـتعرت أنـــا الأخـــرى كتابًـــا و خرجنا إلى البرد في الشارع..

"ياه.. برد أوي يا منى..".

"آي عن جد برد.. بس هلأ بنمشي و بندفى..".

"أيوه..".

"حصلت معي مصيبة يا حنان..".

"حصل إيه؟".

"في بنت معي بالصف اسمها فيرونيكا، من بولندا على ما أظن.. كنا قاعدين عم نستنى الميس و قعدت تحكي معي و تسألني عن إخواني..".

صمتت و نظرت إليّ.. فهززت لها رأسي بالإيجاب..

"عرفت المصيبة.. كملي..".

"قلتلها إنه عندي محمود و نور الصغار، عشر سنين.. و زياد الكبير، عنده تمنتاشر سنة.. و قامت تسألني عن مدرسته وحاجات كتير زي هيك.. و بعدين دخلت الميس...".

"سكتي ليه ؟".

"والله إنها حقيرة هالبنت..".

"اهدي بس يا منى.. هي قالت إيه للميس بالضبط؟".

"أنا ما فهمت عليها عالمضبوط.. بس قالت إنه بما معناه إنه أخوي زياد.. يعني.. بوي فرند.. وأبصر ايش.. و قالتلها كل إللي قلتلها إياه.. و الميس تبتسم و تقول أوكي و تمد في

الأوكي تاعيتها.. بس أنا قلت للميس إنه إحنا ما عندنا هيـــك أشياء و إنه إللي بتحكيه فيرونيكا مش صحيح..".

"ده شيء طبيعي جدًا.. بس كويس إنـــك وقفتيهـــا عنـــد حدها..".

"و إنتِ إيش مفكرة يا حنان؟ والله لأخليها تندم على كـــل حرف قالته..".

"لأ يا مني.. خلاص، إنتِ باينتلها إنك مش قابلة التصرفات إللي من النوع ده.. و إنه إحنا عادتنا مش كـــده.. و المـــيس عرفت كده كمان.. يبقى مفيش داعـــي تفتحـــي الموضـــوع تاني..".

"كيف يعني مفيش داعي؟ هي إيش بدها فيَّ و في أخـــوي؟ هي وين شافته أصلا؟".

"يمكن أخوها معاه في المدرسة..".

"هديك ما عندها إخوة.. هي شو مفكرة حالها يعني؟".

"بصي.. هي متقصدش تطعن في شخصك أو في شـــخص أخوكي.. هما تقاليدهم كده.. اتربوا كده.. يعني حـــتى إنـــتِ شفتِ الميس: مزعقتش أو اعترضت.. دي حاجة عاديـــة جـــدًا عندهم.. مش بعيد تكون الميس كانت بتعمل عمايل فيرونيكـــا

أصلا و هي قدها.. مينفعش نحاسب الناس على تقاليـــدهم يـــا مني..".

"رح اشتكيها..".

"تشتكيها لمين؟ هي مغلطتش في نظر حد..".

"بتعرفي إيش رح قولها؟ رح قولها إنه لو زياد أخـــوي بـــده جيرل فرند ما رح يصلها أصلا" .

فضحكت و أغرقت في الضحك:

"على إيش عم تضحكي؟".

"عليكي.. متنرفزة و غضبانة أوي.. و إنتي لسه في المرحلـــة الأولى..".

"مرحلة أولى؟ إنتي بتعرفي إيش مرة بنت سألتني؟".

"إيش؟".

و قالتها بصوت منخفض و كأن هناك مـــن ســـيفهمنا في الشارع..

"بس كده؟ ده إنتي حتى مدخلتيش المرحلـــة الأولى.. أنـــا بتسئل أسئلة أكبر من كده بكتير..".

"زي ايش؟".

"لأ خلاص اسكتي.. هتوقعينا في الغلط..".

" المهم.."

"المهم، متعمليش حاجة تاني.. إللي إنتي في ده اسمه صـــراع حضارات.. إنتي لو عايزة ممكن تفهميها تاني بهدوء و بالراحة، من غير نرفزة.. لأنه إحنا مختلفين عنهم و هما مخـــتلفين عنـــا.. المهم، إنه إحنا نقدر نتعايش مع الاختلافات دي..".

"عن حد إنهم مختلفين.. ما عندهم حيا حتى..".

و كنا قد وصلنا إلى الشارع العمومي لتفاجئنـــا في وســـعه رياح باردة قوية ارتعش لها جسدي كله.. أحكمـــت ســـترتي حولي و نسقت الطرف الطويل من حجابي الذي كان يطير في الهواء و كأنه علم لمكان ما..

"طب إنتي عارفة أنا حصل معايا إيه إمبارح؟".

"إيش؟".

و قصصت لها حكايتي.. أحس بوجع ما في قلبي..

"يا الله ما أقواه..".

"أنا كمان قلت كده في الأول..".

صمت.. ابتسمت بيني و بين نفسي ورجعت قلت لمنى..

"بس.. ما أضعفه!! .. لما قعدت مع نفسي لقيت إنه الـــبني الآدم إللي مش قابل إللي قدامه لمجرد إنه مختلف و بيعبر عن كده بأسلوب غير حضاري يبقى إنسان هش و ضعيف..".

"يا الله أديش نفسي أرجع على الأردن يا حنان.. حاسة إنه حريتي مسلوبة هون.. نفسي أرجع و أشوف صحباتي و نقعد نبرم و نتخوت زي زمان..".

"تقعدوا إيه؟".

"نبرم و نتخوت..".

"يعني إيه؟".

"يعني نحكي و نلعب و نضحك..".

"ترغوا و تهزروا.. ممم.. و أنا كمان..".

"و أنا كمان.. صارلي من ساعة ما عرفتك و إنتي كل ما أجيب سيرة الأردن أو إشي إله علاقة فيها تقوليلي و أنا كمان.. احكيلي عن مصر يا حنان..".

"مصر؟ مصر أجمل حاجة في حياتي..".

(١٨)

الأربعاء، ٢١ نوفمبر

أحبه أحبه أحبه !

أحبه، أعشقه و لا تعني لي أيرلندا شيئا بدونه !

أنظر إليه فيدق قلبي فرحًا.. و يلامس روحي يثير لمعة في عينيّ تنشر بسمة كلها دفء و اطمئنان.. و حب..

هل في عمرك شاهدت الرقص الأيرلندي؟ و استمعت إلى موسيقاه؟ (كدت أخدعك لوهلة.. أليس كذلك يا وريقاتي؟!).

يا له من فن جميل.. التراث الأيرلندي حيوي جدًا، رقصهم يتطلب خطوات رشيقة سريعة و ملبس هذا الرقص الخاص يكون على هيئة فساتين ملونة بألوان زاهية عدة كالأحمر و الزهري و الأصفر و الأخضر و مزينة بالكثير من الأشكال و الرموز الأيرلندية القديمة.. و ليس هناك ما هو أروع من الموسيقى الأيرلندية الشعبية.. و ها هي تخرج في دلال من بين فتحات المذياع بجانبي.. يستخدمون آلات خاصة، لهم كمان خاص (فيدل) و طبلة خاصة (بوران) و ناي خاص (الناي الأيرلندي) و القيثار (هارب).. هذا غير آلة الكونسيرتينا

الأيرلندية التي تشبه الأكورديون لكنها تختلف عنـــه في صـــغر حجمها و اختلاف صوتها بعض الـــشيء و هيئتـــها الثمانيـــة الأضلاع.. لكل آلة منهم أنغامها المميزة، التي تمـــلأ المـــستمع بالنشاط و الفرح و الضحك و الدفء.. قلـــب الريـــف في أيرلندا..

يا لها من مقدمة يا حنان! ماذا تريدين؟

أريد أن أحكي لكِ عن تجربتي الوحيدة الفريدة مع الرقص الأيرلندي أيتها الأوراق..

تنظم الهيئة التراثية في أيرلندا في شهر مارس من كـــل عـــام أسبوعًا أيرلنديًا.. و هو أسبوع يركز فيه الإعـــلام و المـــدارس و الهيئات الثقافية كالمكتبات العامـــة و المـــسارح و النـــوادي و المتاحف على التراث الأيرلندي كاللغة و الرقص و الموسيقى و الأساطير الشعبية و الأكلات و غيرها و غيرها.. في مدرستي القديمة العام الماضي نظمت المدرسة في كل يـــوم مـــن أيـــام الأسبوع الأيرلندي نشاط ما.. و في يوم من أيامه كان هنـــاك رقص أيرلندي أثناء الفسحة فذهبت لأشاهد..

نظمت هذا التجمع مـــيس ليـــنش (مدرســـة الموســـيقى) و الأخت ماري (سيستر ماري، كما كنا نـــدعوها.. و هـــي مدرسة للغة الأيرلندية) وميس فولي (كارولين فولي.. مدرســـة

العلوم التي أحببتها جدًا.. كانت من أكثر الأيرلنديات اللاتي قابلتهن في حياتي و قد تحررن من العنصرية.. عشت معها أوقات من أجمل ما يمكن..).

جلست بجانبي مجموعة من الفتيات الأجانب أتين ليشاهدن أيضًا، كنا في المساحة الواسعة في القاعة الوسطى بالمدرسة.. و أتت ميس لينش تقول:

"هيا يا بنات.. قوموا لترقصن".

اعترضت البنات بعض الشيء لكنهن قمن، نظرت إليّ ميس لينش بدون تعليق و ذهبت مع الفتيات.. لكنها ما إن أعطتني ظهرها حتى وجدت ميس فولي تتجه نحوي:

"هيا يا حنان.. قومي معي لنرقص..".

"لا يا ميس ..سأشاهدكن فقط ..".

"ليس عندنا من يشاهد فقط!! قومي هيا..".

و أخذتني من يدي مما ذكرني بدفء يد ميس ماجدة معلمتي في مصر:

"لكني لا أعرف أي شيء عن الرقص الأيرلندي يا ميس..".

"لا يهم، سأعلمك..".

"أيجب عليّ حقا فعل هذا؟!".

فضحكت و قالت:

"نعم! يجب عليك حقا فعل هذا.. ثم إنه بإمكانكِ التحـــرك فقط، لا ترقصي إن لم تعرفي".

و وقفت معها في صف كنا فيه أربعة و قابلنا صفا من أربع بنات أخريات و بدأت ميس فولي تعليماتها:

"انظري يا حنان.. هكذا ستحركين أرجلك..".

و لم أستطع فعل تلك الحركة الغريبة، نصف قفزة و ضـــربة على الأرض.. لكني فعلت شيئا مشابهًا على أية حال..

"جيد.. حركتان إلي اليمين.. حركتان إلي اليسار.. و اثنتان إلي الأمام أيضاً و نرجع.. و نعيد..".

نبهتنا الأخت ماري في الميكروفون أن الموســـيقى ســـتبدأ الآن.. نظرت إليّ ميس فولي و ابتسمت.. أمسكنا بأيدي بعضنا و رفعناها و مدّت كل منا رجلها اليسرى إلي الأمام.. و بدأت الموسيقى..

اشتغلت الموسيقى لتطلق أنغامًـــا عاليـــة خفيفـــة ســـريعة كخفقات قلب فراشة و ضربات أجنحتها اللعوب في النسيم...

و أنا أرقص! أرقص و تتسارع دقات قلبي و يحترق وجهي احمرارًا و أحس بيد ميس فولي بيدي.. و الموسيقى تـــدوي في

القاعة و كياني يقفز فرحاً.. فإني فتاة عربية مصرية محجبة.. إني هنا أرقص مع الأيرلنديات نمسك بأيدي بعضنا البعض و أشاركهن موسيقاهم التي أعشقها و رقصهم الذي بدأت أتعلمه.. و كأنهن لا يرين طرحتي التي التفت حول رأسي ولا لون جلدي القمحي ولا يسمعن لهجتي الأجنبية.. التفت أرواحنا جميعًا حول الموسيقى و الغناء و الرقص..

و أنا أرقص! تتطاير أحاسيسي في رقة و سعادة مع روحي التي هربت مني، مع نفسي التي تركتني و جردتني من كل شيء سوى البساطة.. و أنصت لدقات البوران فيضرب قلبي و أحس بنغمات الكونسرتينا فتكاد تدمع عيني لما تثيره من طاقة بداخلي.. و ضحكنا و لعبنا و ما كان ينقص اللحظة سوى أن تطلع الشمس في السماء.. و يا لرضا السماء عنا يومها.. طلعت الشمس الذهبية الهادئة تخترق نوافذ القاعة تملؤها نورًا أفعم وجوهنا جميعًا بالحياة و أعطى لزهور الدافوديل منظرًا بديعًا و لأفرع الشجرة الكبيرة نسيمًا يغني في رقة و سعادة و غدوت الأغصان تذهب و تجيء كأنها ترقص و تضحك معنا..

و مازلت أرقص.. أخطيء و أصيب في الحركات و أتحرك يمنة و يسرة و تعلو أقدامنا عن الأرض و تتحرك سيقاننا في

مهارة و سرعة و أرى أن هناك من خلعت حذاءها و تمنيت أن أطيّر حذائي في الهواء أنا الأخرى.. لكني بدأت أهـــدىء مـــن روعي الجنون..

لتسكت الموسيقى.. و نمكث ننهج جميعًا، ترجع أنفاسنا إلى معدلاتها الطبيعية..

"كان هذا جيدًا يا حنان!".

قالتها ميس فولي و ابتسمت بسمة لامست عينيّ و عينيها..

"نعم.. ".

و انتهى الحفل و عدت إلى صفي أرتب ما أحتاجه للحـــصة التالية.. و كلي حياة و كأني إنسان جديدة..

إنسان حازت على أغلى إحساس لدى الفتاة منا.. إحساس بالأمان الكامل و الحرية و ثراء المشاعر.. فيومها كان لي كيان خاص.. و كان لهم كيان خاص.. و لكنا كنا كيانـــا إنـــسانيا واحدًا حول الرقص و الموسيقى.. أحسست أني كـــالأميرات.. ليست لدي السلطة المطلقة، لكني لست محرومة من أن أكـــون في مكانة راقية تعطيني الإحساس بقوة روحية غريبـــة حلـــوة.. إحساس بأني حنان.. أني نفسي و لست إنسان أقل منها..

(١٩)

الخميس، ٢٩ نوفمبر

مصر أجمل حاجة في حياتي..

قلتها لمنى و قصدتها من أعماق قلبي..

أتعلمين ماذا أفعل يا وريقاتي عندما تضيق بيّ الدنيا و تخنق الغربة روحي حتى تكاد تهوي على الأرض انكسارًا و ينهار كياني يكتم خاطري يحجّر دموعي حتى تغدو ثلجًا جامدًا كاسرًا لا يتزعزع أو يسيح فلا أملك دمعًا؟.. فلا أملك قدرة على البكاء؟ و تسقط أحاسيسي كجمر النار على قلبي تحرقه.. تجعله يتألم بلا أنين.. تجعله يصرخ بلا صوت.. بلا دويّ لصياحه..

أتعلمين ماذا أفعل؟

آتي بالبوصلة التي نستعملها لمعرفة القبلة كلما انتقلنا إلى مكان ما.. و بها أحدد اتجاه الشمال و من ثم أستطيع أن أحدد الجهة الجنوبية الشرقية.. حيث تسكن مصر.. و إن كان حظي جيدًا كما هو هذه المرة فيكون شباك غرفتي باتجاه الجنوب و كل ما أفعله هو أني أقف عند يمين الشباك أنظر بزاوية ما

ناحية اليسار حيث الشرق و أرمي ببصري بعيدًا بعيدًا و أعرف أني إذا مكثت أنظر في هذا الاتجاه سأرى مصر.. و أحس بها.. أحس بها جدًا و أشركها في كل شيء في حياتي فدائماً ما أقف عند الشباك و أفتحه أتنفس بعمق الهواء البارد الذي يثير رعشة في جسدي و أشم رائحة الزرع الأخضر اليانع التي ملأت الدنيا و كللت ببلل أمطارها أغصان أشجار الشتاء العارية الموحشة.. لكني أتخيل أن الرعشة من دفء رياح مصر و شوقي إليها و أن رائحة الزرع ما إلا عائق سأتخطاه و الأشجار صورة للماضي سأمحوها.. و أكلم مصر..

أصبح عليها.. و أبتسم لها.. أشكو إليها.. أضحك معها.. و أغازلها.. ندندن سويًا.. أحكي لها.. أبكي إليها.. و أحيانا أنام على صوتها..

نعم، أنام على صوتها.. كليلة أمس.. اعتدلت في سريري حتى كنت مضطجعة باتجاه الجنوب الشرقي و عيوني تنظر برفق إلى الشباك الذي أغلقت ستائره لكنها لاتزال ترى ما وراءها.. و حادثت مصر همسًا..

"عارفة يا مصر؟ إنتِ وحشاني أوي أوي.. بالذات الأيام دي، مش عارفة ليه.. كلهم وحشوني.. أمانة تسلميلي عليهم يا مصر.. على بنات عمي.. و على خالي.. على طنط رجاء و

على ميس ماجدة.. على تيتا يا مصر.. تيتا وحشتني جدًا.. وحشني كلامها، وحشتني حواديتها.. وحشتني ضحكتها إللي بتملى البيت.. وحشني حضنها.. عارفة يا مصر؟ حضنها ده حلو أوي..".

و اختنقت الدموع في حلقي لكني تنفست و عاودت بابتسامة هادئة:

"وحشتني تيتا لما تلف دراعتها الدافية حواليا و تحضني جامد تخلي أي إحساس جوايا يدوب و ينتهي ماعدا الإحساس بحبها و قربها و رقة قلبها.. تحاوطني من كل ناحية أسمع ضربات قلبها الهادية القوية.. و أرمي راسي على كتفها أعيط.. و أبكي..".

انتصرت دموعي و نزلت تنهمر على وجهي:

"و تشمي ريحتها يا مصر.. ريحتها العذبة.. ريحتها إللي إديتها لكل ركن في البيت و تملاكي، تغمرك و تبقى عايزة تفضلي كده على طول.. تبقي عايزة تموتي في اللحظة دي.. إللي كلها نقاء.. اللحظة إللي بتحسي بإحساسك فيها.. إللي بتحسي بقيمة الثانية فيها.. و تلعب في شعري.. تمر عليه بصوابعها الناعمة ترتبه و تبعدني عنها في حنان و أقعد تحت رجلها تضفرهولي..".

و في انعدام الرؤية أمام غشاء الدموع الذي ملأ عينيّ مررت بيدي على شعري البني المتموج، أتيت به على كتفي و اعتدلت أجدله في تأن..

"و أقعد معاها في البلاكونة، نـشوف النـاس و تكلمـني عنهم.. و عن قصصهم.. نتكلم و نرغـي و علـى المغـرب أجيبلها الصينية و البن و السبرتاية و تعمل قهوتها و تغني لفيروز و أغني معاها.. آه يا ربي.."

بدأت ترتعش أرجلي و مازلت أبكي.. فصمت أتـنفس في هدوء و أمرر يدي على أرجلي أهدئ منهما وانفعـالاتي الـتي جعلت قلبي يرتعش هو الآخر..

"خليكي معايا يا مصر.. خليكي صاحية جنبي لحد ما أنام.. مع إني عارفة إنك دايمًا صاحية بتسمعي لناسك التعبانـة إللـي محتاجلك و محتاجين مساعدتك و تشجيعك و أملك.. لكن أنا كمان محتاجاكي يا مصر.. محتجـاكي جـنبي.. و إلا مـش هعيش.. عارفة؟ أنا ساعات هنا بحس إني صـغيرة و ضـعيفة و بينداس عليا.. أيوه.. و بضعف و أقـع.. لكـن سـاعتها بفتكرك.. حتى لو إني عارفة إني مش راجعة دلـوقتي.. بـس بفتكرك و بفتكر إنه أنا عندي مكان بنتمـي إليـه، مكـان هيحتويني لو الدنيا كلها كرهتني و رفضتني.. طب أقولك على

حاجة.. أنا مشتركتش في فريق المناقشة بتاع المدرسة عشان نفسي.. والله ما عشان نفسي.. اشتركت فيه عشان عايزاهم يقولوا إنه المصرية المحجبة بتقدر تعبر عن آراءها و أفكارها بأسلوب حضاري.. ماهياش انطوائية ولا سلبية.. إنه المصرية قدرت تنجح و تثبت نفسها.. و لو المصرية عملت كده، يبقى بالدنيا كلها عند حنان.. ده إللي بيخلق حنان..".

ابتسمت و مددت يدي آتي بالمسجل الصغير من الدرج مع سماعاته، وضعتها في أذني أستمع لـ"بحبك وحشتيني" لتمر رعشة حنين تهز كل كياني..

"شفتي عملت إيه النهاردة يا مصر؟ طب والله أنا تحفة و مش باين عليا.. هههههه.. هقولك.. إنتي عارفة طبعًا إنه إجازة الكريسماس على الأبواب.. فقمت أنا قررت إني أشتري كروت للكريسماس و أديها للبنات إللي أعرفها.. فإديت جابريل و لوريتا و بلسينج و دون و جين و ناتاليا.. كلهم انبسطوا لكن انفعال ناتاليا كان مش طبيعي.. حقيقي أنا عمري ما شفت البني الآدمة دي سعيدة كده.. أنا طلعته من الشنطة و قعدت أقول، هاه هتروحي ولا تحترمي نفسك و ماتجبيش لنفسك الكلام و تقعدي.. بس رحت و قلت لنفسي يعني هو بكتيره هتقولي شكرًا ببرود.. لكن ايه ده، إنبسطت أوي و أنا انبسطت من نفسي جدًا.. قالتلي: شكراً يا حنان، شكراً أوي،

الله!! ده أنا حتى هأفتحه.. أنا مبقتش مصدقة عـيني و وداني.. دي ماكنتش حتى سعيدة كده و هي بتتكلم عن صاحبها ده لما رجع من دبلن.. نادتني باسمي و فتحتـه و قرأتـه و كانـت مبسوطة أوي لدرجة إني اتكسفت و قلتلها طيب ماشي، أنـا ماشية، باي.. مش بقولك تحفة.. آه يا مصر.. أنا بحب ناتاليا.. المشاحنات قلت.. ممم.. من ساعة يوم كده حت تستـشيرني شخصيًا فيه.. كانت عايزة تنقل دبلن و بتـسأل عـن نظـام المدارس و النقل و كده.. مانا لفيت البلد كلها.. من سـاعتها و إحنا مقربين من بعض أكتر.. و الموضوع ده ريحني كـتير.. لأنه كمان قربني من جابريل.. و بقينا إحنا التلاتـة و لوريتـا و بليسنج بجموعة جديدة صغيرة.. و بقـالي كـتير أوي أوي ماحستش بموضوع المجموعات ده يا مصر.. من ساعة ما كنت عندك في المدرسة و يبقى الـ ١١ بنت بتوع رابعة ابتدائي أول ماشيين سادين الحوش كله.. مش مخليين الولاد يلعبوا كـورة عدل..".

و كان يدوي صوت الجسمي في أذني.. و لا أعـرف مـا الذي دعاني أن أطبع قبلة على طرف أصبعي و أرسل نسمة من قلبي تمر عليها تأخذها عبر أميال و أميال حتى تلمس وجه مصر الذي رقرقت مياه البحر جبهته و رسم سواد الليـل عيونـه.. و ضحكت في خفة و هدوء أعاود:

"إيه كمان يا مصر؟ عايزاني أقولك إيه؟ ... صـــحيح، إزاي أنسى حاجة زي كده؟! اتصلت بالمركز الإســـلامي في دبلـــن و سألتهم على الأنشطة المتاحة للآنسات إللي زيي كده، قـــالوا لي في تخييم يوم ٣ يناير بس لازم أرجع و أتكلم تاني يوم الجمعة و أسأل الأستاذة نجوى على التفاصيل.. شفتي بقى؟ لما أقـــول أعمل حاجة هعملها.. يعني أقل من الأيرلنديات إللي بينطوا كل شوية في حتة شكل؟".

انتهت الأغنية لكني جعلتها تبدأ من جديد..

"حلوة الأغنية دي يا مصر.. بحبها.. بعدت و كنت هعمل إيه، مين اختار غربته بإيديه لكن حبك ده مانستهوش و عـــاش فيا.. صوتي بشع، معلش بقى،بنتك ولازم تستحمليني.. أنا بغير لما بشوف الميسات بيضحكوا و بهزروا مـــع الأيرلنـــديات.. تفتكري كده صح؟ ياما أنا و ميس ماجدة اتكلمنا و ضـــحكنا و بعتنا رسايل لبعض، و ياما اشتكتلها و احتـــضنتني زي مـــا تكون ماما بالضبط.. وحببتني في العربي و فهمتهوني و خليـــتني أحس إنه لغة المفروض أفخر بيها.. و مستر عبد الباقي لما قالي: يا حنان، قولي لبابا لما تروحيله أيرلندا يجبلـــك كتـــب عـــربي و تاريخ، عربي و تاريخ يا حنان، لحسن دول أهـــم حاجـــة في حياة الإنسان.. و عنده حق..".

نزلت بقايا الدموع تترقرق على أطراف أذني تبرد من سخونتها..

"ياه دي المخدة اتبلت يا مصر.. بقالي كتير معيطش.. بس تصدقي كده ارتحت؟".

تنهدت بعمق..

"أنا على فكرة شايفاكي يا مصر.. شايفة نورك و ناسك الكتير.. و الشوارع و العمارات و كوبري قصر النيل مزين نيلك و مخليه أجمل و أجمل.. شايفة القلعة و جامع محمد علي.. شامة ريحة الهوا الدافية الجميلة.. عارفة؟ ريحتك يا مصر بتبقى في هدومنا لما نرجع من الإجازة لأيرلندا.. ريحتك و ريحة بيت تيتا.. بتبقى مالية هدومنا.. ساعات بحاول مشمهاش عشان معيطش.. لكن بتتغسل و بتملاها ريحة أيرلندا إللي مبقناش خلاص نميزها لأننا اتعودنا عليها..".

تثاءبت أحس بالتعب و النعاس..

"أنا هنام بقى.. تصبحي على خير..".

مسحت وحنيّ مرة أخيرة.. و ابتسمت لمصر أودعها.

"هصبّح عليكي بكره..".

و عدت أجد نفسي في غرفتي نظرت للشباك فما رأيت إلا ستائر مغلقة و قبل أن أحاول أن أرى أي شيء آخر انزلق

المسجل الصغير من بين يدي و وقع على الأرض.. و ضعت في بحور النوم..

و ها أنا يا وريقاتي، بين يديك.. كتبت إليـــك و ملأتـــك بكلماتي و أحاسيسي.. و قد لا يمر عليك أحد.. و قد تنقشين على أحجار التاريخ.. قد تدفنين معي.. وقد تنشرين كلمـــتي للعالم أجمع.. لكن فقط تذكري دائمًا أنك في يوم من أيام هذه السنين التي تولد و تجري و قد لا يهتم بها أحد عـــشت معـــي وحملت في مكنونك مذكرات فتاة في الغربة..